رواية الدميمة

قصة واقعية لطفولة محرومة من الحنان

- "هل يعلم والداك بأنك هنا؟"

سؤال طرحتُه علي السيدة في مكتب الخدمات الاجتماعية فقلتُ لها:

- "لا، لكني أود معرفة شئ عن منازل الأطفال المشردين".

وكان علي الوقوف على أخمص قدمي حتى أستطيع الرؤية من على مكتب الإستقبال فسألتني:

- "كم عمركِ؟"
- "إحدى عشر سنة".
- "الأمور سيئة في المنزل، أليس كذلك؟"

قُلتُ:

- "بلى، ماذا علي أن أفعل لأسجل اسمي؟"

فقالت:

- "دعينا نأخذ بعض المعلومات" فأعطيتُها اسمي وعنواني وقُلتُ لها أنني أرغب في أن أنتقل اليوم لو أمكن ذلك.
- لا يُمكنك الإنتقال إلى منازل الأطفال المشردين يا حبيبتي إذ عليك الحصول على موافقة والديك أولاً فلما لا تعودين إلى المنزل وتُفكرين في الأمر؟ يُمكنك العودة لرؤيتي مرة أخرى.
- "لكني لا أرغب في العودة إلى المنزل".
- "حسناً، لا يُمكنني تسجيلك لمجرد أنك ترغبين في ترك المنزل أتريدين منا أن نتصل بوالدتك؟

قُلتُ لها:

- "لا شكراً أستطيع تدبر أمري".

إذا أكتشفت والدتي ما أفعل فسوف أتعرضُ للضرب لذا عُدتُ سيراً على الأقدام عبر شارع وول ورث بإتجاه منزلنا في ميدان صاذرلاند جنوب لندن وكان اليومٌ جميلاً ومشمساً إلا أنني كُنتُ أشعرُ بالإحباط إذ لا شئ أفعله قط ويحدث لي كما أتمناه حتى منازل الاطفال المشردين لا ترغبُ في إيوائي ولذا فإن الحياة لا تستحق أن نحياها على الإطلاق.

قررتُ في تلك الليلة ألا أحد سوف يفتقدني إذا اختفيت ولذلك فقد كتبتُ رسالة لوالدتي قبل أن آوي إلى الفراش ووضعتُها في حقيبتي المدرسية المطرزة ودخلتُ الحمام ثم فتحتُ غطاء قنينة المبيض وقُمتُ بتخفيفه من ماء الصنبور ثم شربتُه وعُدتُ إلى فراشي وحيث أن دوميستوس يقضي على كل الجراثيم المعروفة وبما أنني جرثومة كما أخبرتني والدتي من قبل فقد قُمتُ بإختياره فأحسستُ بالإعياء الشديد وبالسعادة والحزن فكُنتً سعيدة لأنه في هذه الليلة لو أدى المبيض مفعوله سوف أموت ولن يكون هنالك غدٌ آتٍ يا لفرحتي! كما أني كُنتُ جدٌ حزينة لعدم تمكني من رؤية أخوّاتي مرة أخرى إلا أن ذلك قد لا يكون سيئاً. أما بالنسبة لوالدتي فإني أُقسم بالرب بأني سأعود مجدداً وأقوم بمطاردتها حتى آخر يوم من حياتها وسوف أقوم بصفعها على رأسها ثم أقوم بزحلقتها على السلالم وأجذب الأغطية عنها أثناء نومها، بلى سأفعل!

استيقظتُ صباح اليوم التالي من النوم معتقدةً أنني في عداد الموتى وكان منبه البلل في فراشي يرنُ من على البعد كما أن الأضواء كانت تُضئ وتنطفئ وأنا في حالةٍ من الذهول على فراشي غير قادرة على تحريك يديّ أو قدميّ وكانت والدتي تنظرُ نحوي وصاحت بي "أنهضي عن الفراش" إلا أنني لم أبرح مكاني ولم أستطع التحدث وذلك نتيجة الألم الذي أشعر به في فمي من آثر المبيض وقد ظهرت بثور حول شفتي كالأرز المقرمش.

- "هيا- أنهضي عن الفراش"

ثم قامت بسحب الدثار بعيداً وقالت:

- "لن أكرر ذلك مرة أخرى، أنهضي".

أمسكت بيدي وسحبتني ثم أفلتتني إلا أنني هويتُ أرضاً ونصفي على الفراش وبدأتُ أتقيا حينها أدركت بأن هنالك خلل فصاحت:

- "ايستمان".

وكان ايستمان عشيقها الجديد فنادى ايستمان على بولين والتي نادت على باتسي وهما أختاي الكبيرتان ثم قالت والدتي:

- "يا الهي، سوف تُوقعيني في مشكلة".

قال ايستمان أن على والدتي الاتصال بطبيب واستدعاء سيارة الإسعاف إلا أن والدتي قالت أن على بولين جلب ملاءات نظيفة وتغيير الفراش ووضع الأغطية الملطخة في المغسلة ثم بدأت بترتيب الغرفة وفتحت النوافذ لطرد الرائحة النتنة خارجاً وعندما الإنتهاء من كل ذلك قالت والدتي أنه لابد من أن يتم نقلي إلى غرفة نوم أخرى لأن أي طبيب يدلُف إلى هذه الغرفة سيعتقد أنني مُهملة.

أمرت والدتي أختي بولين بتغيير رداء نومي وعادت برداء نوم جاف وقامتا بإلباسي إياه بعد عناء ولابد أن والدتي أحست بأن مجرد تواجدها يُثير اشمئزازي فأخبرت بولين بالمتابعة وغادرت الغرفة حاملة معها رداء نومي المبلل لثلاثة أيام متواصلة فتدلى الرداء النظيف إلى كاحلّي مُغطياً مجموعة من الكدمات والجروح والآثار التي تتطلبُ تفسيراً لها فقالت أختى:

- "هيا يا كلير".

وناولتني الماء بالملعقة قائلة:

- "هيا يا كلير، إفتحي فمك وأشربي"

وواصلت سقياي الماء بالملعقة فتجرعتُه:

- "هيا يا كلير ماذا فعلتِ هذه المرة؟".

لابد وأني قد غفوتُ لأني حين استعدتُ وعيي كان الليل قد أرخئ سدوله ووجدتُ أختي الصغرى كريستين بجانب فراشي تقول:

"قالت أمي أنكِ سوف تُوقعينها في مشكلة" هذا ما أخبرتني به كريستين.

- "ماذا فعلتِ؟".

وبعد بُرهة عادت بولين وأعطتني بعضاً من حساء ذيل الثور لأتناوله ثم تقيأتُه عقب تناوله على الفراش والسجادة. ظلت والدتي وايستمان بعيدين عن غرفتي وسمعتُ والدتي من خارج الغرفة تتحدث مع ايستمان قائلة له:

- "ربما تستعيد عافيتها فعليك الانتظار، أبقي بولين معها وإذا حدث أي شئ سنستدعي الطبيب وعربة الاسعاف".

وبدأت والدتي تحتج قائلة:

- "يا أيها المسيح الرؤوف ماذا فعلتُ لأستحق هذه الطفلة؟".

وقالت لي أختي:

- "هيا يا كلير استيقظي".

الإ أني استغرقتُ في النوم وما أذكره تالياً استيقاظي في الظلام وكانت أختي تنامُ عند أسفل الفراش وحينما حاولتُ رفع رأسي هرعت إلى الباب مناديةً على والدتي التي جاءت راكضةً إلى الداخل ومن خلفها ايستمان الذي كان يطلب منها الاتصال بالطبيب.

- "كارمن، استدعي الطبيب قبل فوات الآوان".

فقالت والدتي:

- "لا، عليك الانتظار لفترة أطول".

فقال لها:

- "كارمن، سينتهي بك المطاف إلى السجن، هل تعتقدين بأني سأذهب معك؟ لا يا سيدتي فأنا لستُ ذلك الشخص الذي يُخدع، عليك باستدعاء الطبيب يا كارمن، أنتِ لا تعلمين ماذا أصاب هذه خطب الطفلة" فقالت له:
- "ايستمان، إذا كانت كلير ستموت، كان ينبغي أن تموت الآن لقد حولك السجن إلى غبي".

عندما استيقظتُ للمرة الثانية كان الوقتٌ نهاراً وكانت أختي ما تزال في غرفتي ومن الغريب أني لم أبلل الفراش وحينما بدأتُ أتحرك هرعت بولين خارج الغرفة وعادت ومعها والدتي وطبقٌ آخر من حساء ذيل الثور وقالت أختي وهي تسقيني الحساء بالملعقة

- "هيا كلير، تناولي".

وقالت والدتي:

- "يا إلهي، لك ابن، هلا أخبرتني أين أخطأت؟ أيها الطفل يسوع أنت فوق رأسي أجعل هذه الطفلة تغادر الفراش الآن، يا سيدي المسيح الرؤوف ألست طفلتك المطيعة؟"

ثم وقفت والدتي عند أسفل الفراش مستفسرة:

- "هل تريدين طبيباً؟".
- "لا، لا أريد، أرحلي بعيداً" هذا ما كُنتُ أفكر فيه "هل أريد طبيباً؟ بالطبع لا، لا أتمنى أن أنجو، أرغبُ في التوقف عن كوني جرثومة".

غادرت والدتي الغرفة ثم عادت:

- "بولين، لو احتاج الأمر، استدعيني".

سقتني أختي الحساء وقالت لي:

- "ماذا فعلتِ يا كلير؟ يمكنك إخباري".

فسألتُها:

- "يا ذات العيون الأربع هل تتجسسين لصالح والدتي".

فأجابتني:

- "لا، لما تظنين ذلك؟".

فقلت لها:

- "إذاً لا تسأليني".

بدأت تُسقيني الحساء في صمت وفي نهاية الأمر غفوتُ مرة أخرى وحين استيقظتُ كان هناك احساسٌ حارقٌ بين ساقي ونمت القشور وتلبد كامل شعري كما حرقني البلل في عضوي وتشكل طفح حراري أعلى ساقي الى مؤخرتي إلا أني كُنتُ ممتنة لأسباب عديدة وهي أن الإنذار لم ينطلق كما أن لا أحد يسحبني من عضوي خارج الفراش ولا أحد يلوي لي حلمتيّ أو يلكُمني في بطني وظهرت أختي من جديد حاملةً معها مجموعة من أغطية الفراش الجديدة ورداء نوم نظيف.

الفصل الأول

عائلتي

يجب أن أكتب قصتي فلطالما كُنتُ شخصاً كتوماً وهذه المرة الأولى التي أتحدثُ فيها عن قصتي ومع أنه من الصعب تذكُر ترتيب الأحداث إلا أن والدي جورج وأختي بولين يُساعداني في ذلك ولو كانت لدي مذكرات لكان ذلك سهلاً ولقد احتفظتُ بواحدة حينما استطعتُ الكتابة إلا أن والدتي قامت بسرقتها جميعاً.

سأبدأ باسمي في شهادة الميلاد وهو كونستنس ولقد اكتشفتُ ذلك وأنا في الثامنة عشرة من عمري فقبل ذلك كُنتُ أعتقد بأن اسمي كلير حيث كانت والدتي تدعوني بكلييز وذلك لقولها بأني شفافة مما يمكنها الرؤية من خلالي بوضوح وعندما كُنتُ أحوز على رضائها – وليس ذلك ممكناً في كل الأحوال – كانت تدعوني كلييري وقامت أخواتي بتحويله إلى كلير كما زِلن يُناديننني به فدُعيت بكلير في تقاريري المدرسية وعندما عملتُ في دور العجزة والمسنين عُرفتُ بالممرضة كلير كما أنه مكتوب برخصة القيادة كلير وهذا ما ستعرفونني به في القصة.

تُدعى والدتي كارمن وجاءت من جامايكا إلى بريطانيا في بداية عقد الخمسين من القرن العشرين عندما كانت مراهقة وترعرعت كفتاة كاثوليكية صالحة وتعرّفت على والدي في بورتلاند ثم التقته مجدداً هاهنا وكان جورج يكبُرها بعشرة أعوام وفي سن الثامنة عشرة، حمِلت والدتي منه فتزوجا ورُزقا بولد عُمدّ باسم وينستون إلا أنه تُوفى بعد أربعة أشهر واحتفظت والدتي بصورة التقطت له وهو ميت على ذراعيها وكُنتُ رابعة أطفالهم وولدتُ وترعرعتُ وتلقيتُ تعليمي في بريطانيا فأنا بريطانية سوداء نهاية القصة.

وتتكون عائلتي من:-

- أبي جورج، كان رجلاً قصير القامة وكانت جدته بيضاء اللون مما جعله ملوناً فكانت لديه بشرة ناعمة حتى أنه لم يُصب بالتجاعيد عند تقدمه في السن وكان أنيقاً ومشذب الشارب دائماً.
- والدتي كارمن ويدعوها جورج كارميل وقد كان لها قدٌ رشيق كما أنها كانت فائقة الجمال وبدت كنجمة سينمائية أكثر منها أماً مع لون بشرةٍ كالقهوة.
- أختي الكبرى بولين، ولدت في السادس من أكتوبر ١٩٥٤ وقد دعوناها بذات العيون الأربع لإرتدائها النظارات وبدت كإطارات نظارات على أقدام فملامحها السنجابية

مغطاة كلياً بعدسات كبيرة ولكبرهما وسمكهما لا يُكاد يُرى من خلالهما ولها بشرة سوداء، نحيفة وبطول خمسة أقدام وسبع بوصات عند اكتمال نموها وذات شعر قصير وهي ماكرة وكتومة وتحشر أنفها في كل شئ كما أنها في كل الأحوال حريصة على حماية مصالحها.

- أختي الكبرى الأخرى باتسي والتي نسميها الهرة الثمينة، ولدت في الثامن من مارس ١٩٥٦ وهي ذات لون بشرة فاتحة أكثر إصفراراً وطولها عند اكتمال نموها كان خمسة أقدام وبالرغم من هيكلها الصغير جداً فإن لها مؤخرة بارزة وترتدي حذاء بمقاس ثلاثة ونصف كما أن لها شعر قصير وغزير ولها صدر ضخم وأعين منتفخة.
- ثم آتي أنا كليير، كليري، كلير ولدتُ في الثامن عشرة من مايو ١٩٥٧ وطولي حوالي خمسة أقدام وثلاثة وربع بوصة عند اكتمال النمو ومتوسطة البنية والتي لم تنجح في أي يومٍ من الأيام في رهان المظهر وإلى عهدٍ قريب وُصفتُ بالدميمة ولكني كُنتُ واثقة تماماً من خارجي.
- ويأتي بعد ذلك في الترتيب إخوتنا الذكور كارلتون –عادة كارل– ومارتن ويعرفان بابنيّ إذا حازا على رضاء والدتي ولم يسبق لابنيّ والدتي أنا مارسا أي خبرات عملية في الطبخ أو النظافة أو التسوق كما أنهما تمتعا بالحياة السهلة حتى كبِرت مؤخرتهما كثيراً على الضرب ولقد ولدا في ١٩٥٩ و١٩٦١.
- كريستين، وتُدعى ذات الأنف الزرار أو الأزرار أو جميلتي ولدت في السابع والعشرين من نوفمبر ١٩٦٢ وهي صاحبة اللون الأفتح فلونها أصفر ناصع وهي ذات أربعة أقدام وستة بوصات عند اكتمال نموها كما أنها زائدة الوزن دائماً وهي ذكية إلا أنها على استعداد تام للبقاء محايدة حتى ولو لم يتوجب عليها ذلك.
- أختنا المتبناة دينيس، ولدت في نفس اليوم مع كريستين ولقبها سودائي وذلك للون بشرتها فملامحها مناقضة تماماً لعائلة بريسكو فهي نحيفة ذات أرجل قصيرة ومؤخرة تتبعها حيثما ذهبت كما كانت دينيس مختلفة أيضاً عنا نحن آل بريسكو فهي ودودة وكريمة دائماً.
- عشيق والدتي ايستمان الذي لم يتزوج والدتي قط وهو من شعب الباربادوس وكان ضخماً وغبياً وله أربعة أطفال من والدتي.
- أختي غير الشقيقة سينثيا وهي بدينة بطبيعتها فأُجبرت على الحمية منذ يوم ولادتها حيث لم تستطع قط الجلوس منذ أن كانت طفلة وطولها عند اكتمال نموها حوالي خمسة أقدام وخمس بوصات وذات هيكل كبير ولها أنف أبيها الواسع المسطح.

- أختي غير الشقيقة الأخرى نورما وهي الأذكى من اطفال ايستمان ذات طول مع امكانية زيادة طولها كما أنها نحيفة وقد إنسجمتُ معها وكنا صديقتين.
- أخي غير الشقيق وينستون وطوله خمسة أقدام وإحدى عشر بوصة عند اكتمال نموه وقد كان الأغبى وله أقدام كبيرة ويبدو كوالده تماماً.
- أختي غير الشقيقة الأخرى جورجينا وعُرفت بجينا وهي فتاة ذكية وجذابة وكان بمقدورها النجاح إلا أنها كانت بحاجة لبذل المزيد من الجهد.
- المستأجر بيم وهو رجلٌ طاعنٌ في السن عرفهُ والداي من جامايكا وكان شاهداً على معاملة والدتي لي ومعاركها مع جورج كما أنه كان صديقاً حميماً لي مما أدى إلى سقوطه في النهاية.

كما كان لدّي صديقة حميمة أخرى تُدعى ماري إلا أنها كانت من نسج خيالي ويمكن إيجادها في ثنايا الصفحات في مذكرتي وأنا في الخامسة من عمري وكانت المذكرة ذات لون عاجي وحواف بنية وقد عرِفت ماري ما أعرف ولم أعرفُ سواها وأختفت ماري في نهاية المطاف وأعتقد أن والدتي قامت بسرقتها.

كان المال هو مصدر التوتر المستمر بين والداي فقد أصبح والدي ثرياً عندما كان يافعاً بفوزه في المراهنات مرتين وقدمت له ليتل وودز للمراهنات نسخة مكبرة من الشيك الأصلي للمرة الثانية فأحتفظت به والدتي فوق المدفئة كتذكار بمقدار الأموال التي فاز بها وما لها من حق فيه واستثمر جورج ماله بحكمة في العقارات حيث اشترى عدة منازل بجميع أرجاء كامبرويل وهي مدينة في جنوب لندن بالقرب من مقاطعة ايلفنت اند كاسل وكانت جميع منازل جورج تقع في شارع وول ورث فكان لقبه جورج المكتفي من المنازل ولقد انتقلنا خلال طفولتي إلى العديد من هذه المنازل ولعب ذلك دوراً هاماً في قصة حياتي وأستطيع تذكر بعضٍ من تلك العناوين: الشارع رقم ٤ كونسلر- الطريق رقم ٥ مايات- الطريق رقم ٧ ورقم ١٦ باتموس- الشارع رقم ٤١ أوفلي- الطريق الجديد رقم ٢١٥ كامبرويل- الشارع رقم ٦ بارنيت- ميدان صاذرلاند رقم ١٩.

وكان جورج يسترزق من إيجار تلك المنازل وما عاد يعمل بعد فوزه في المراهنات وأول ما قام بفعله هو شراؤه سيارة سريعة كانت فورد كابري جديدة وكانت رمادية اللون مُطعمة بالفضة وقضى أغلب وقته يجوب بها الطرقات كما أخذ يُدخن بشراهة ومن ثم يقوم بتغيير سيارته بأخرى جديدة كل عام وكانت كلها فورد كابري ذات اللون الرمادي المُطعم بالفضة.

ترك والدي والدتي بعد ولادة باتسي لكنه كان يعود من وقتٍ لآخر إلا أنني لا أذكر قضاءه الليل في بيتنا أو تناول الإفطار معنا وذلك لملاحقة والدتي لأمواله دائماً كما أنها حاولت إقناعه بشراء منزل ليهبه لها إلا أنه رفض بيد أنه سمح لها بالحصول على إيجارات بعض منازله كمساهمة منه في رعاية العائلة ولكن ذلك لم يك كافياً بالنسبة لها مطلقاً ومع بدايات مغادرته كانت تحاول والدتي إقناعه بالنوم معها عندما يحضُر لرؤيتنا وحالما كان ينام كانت تُفرغ جيوبه من رزم المال ولابد أن تكون قد حمِلت بي في إحدى تلك المرات.

كانت معاملتها لأخواتي مختلفةً تماماً عن معاملتها لي فلم يكن يسمعن كلماتٍ جارحةٍ كما يحدث لي أو تُقرص حلماتهن أو يُضربن ويُلكمن وكما كانت تشتري لهن الملابس الجديدة في حين كان نصيبي المستعمل من الملابس بعد فراغ بولين ومن ثم باتسي منه وكان لدى والدتي الكثير منها في أكياس بلاستيكية جاهزة لتمريرها إلي كما أنني لم أك قط أول من يفتح حقيبة ويُجرب فستاناً وإنما كانت تلقي إلي والدتي بفستان وتقول لي:

- "خذي يا كلير، جربي هذا لتري إن كان يناسبك".

ولم يحدث ذلك مطلقاً حيث أني في نهاية المطاف أنمو لأناسبه وأمتلكت والدتي الكثير من الملابس الجميلة ذات الأشكال اللامعة وبخاصة الأزهار فكانت ملابس فاتنة لكل مناسبة وأتذكر اختبائي داخل خزانة ملابسها ومشاهدتها وهي تقوم بتبديل سترة صوفية عادة ما ترتديها داخل المنزل إلى فستانها الوردي الكالح وهو المفضل لديها ولكم رغِبتُ في ملابس جميلة أيضاً إلا أنني جدٌ دميمة حينما ألبس ملابس سوى ملابس أخواتي البالية.

جعلتني مُعاملة والدتي عصبيةً جداً مع مرور الوقت فكُنتُ أُبلل فراشي منذ أن وعيتُ لنفسي وأثار هذا الأمر غضب والدتي مما كان ذلك سبباً في معظم الضرب الذي تلقيتُه وعند بلوغي سن الخامسة تقريباً تم تحويلي من قِبل طبيب العائلة إلى مختص في مجال البلل فذهبتُ إلى العديد من المقابلات مع والدتي لمعرفة سبب المشكلة وأذكُر أنه كان لدي لباس نوم قطني يصِل إلى كاحليّ فكُنتُ أعقص ساقيّ بسحبهما إلى الأعلى عند صدري لأبدو كالكرة عند ذهابي للفراش وفي نفس الوقت أشُد اللباس إلى أسفل كاحليّ وكثيراً ما نمت على جانبي وفي احدى الليالي استيقظتُ في ظلمة الليل مع إحساسي وكأنني أغرق حيث كُنتُ منقوعة من أسفل رقبتي إلى كاحليّ كما كان كلٌ من وسادتي ودثاري مبللين وحصل بمنتصف الليل حدثان هائلان فكانت تلك البداية لكل ذلك وجراء تبليلي الفراش كُنتُ أحياناً أُعاقب بأن أنام على مرتبة دون ملاءة مع إبدالها بغطاء بلاستيكي لأن والدتي قالت بأنني سأبلل الفراش في كل الأحوال ومن ثم فإن الأمر لا يعنيها وأُعطيت والدتي الكثير من الكتب عن تبليل الفراش

وتدريب المثانة وعند بلوغي سن الخامسة حصلتُ على أول نظام للتنبيه وكان على ما يبدو من أنجع طرق المعالجة ويأتي مع صندوق بأصوات محببة للأطفال والذي وُضع بجانب الفراش مرتبطاً بسجادة ذات المجس الذي يمر أسفل ملاءتيّ الفراش فيرنُ صندوق الأصوات عند حدوث البلل ومن المنوط به إيقاظي أو جعلي أتماسك كما أنه من المفترض تدريجياً أن أتعلم الاستيقاظ أو التماسك عند الاحساس بإمتلاء المثانة من دون التنبيه.

كان صوت المنبه المحبب للأطفال كصوت سيارة الإطفاء المندفعة بعد اتصال طارئ وفي أول مرة إنطلق فيها قفزتُ خارج فراشي وزحفتُ أسفله وكُنتُ مرعوبةً بأن هناك حريق في فراشي فحضرت والدتي مسرعة إلى غرفتي ولاحظت إختفائي واعتقدت بأني ركضتُ إلى الحمام ولو أنها أسكتت صندوق الأصوات وسحبت الملاءة العلوية من الشبك الموجود تحتها ثم عادت إلى غرفتها! زحفتُ خارجاً من تحت الفراش بالكاد مدركة أين كُنتُ؟

وعلى الرغم من أنني طفلة صغيرة فقد كُنتُ متأكدة أن تبليلي للفراش لم يك نتيجة للكسل كما أن الطبيب قال أن السبب يمكن أن يكون نتيجة للقلق في حياتي ثم قال أني سوف أتعافى خلال أربعة إلى ستة شهور مع منبهي إلا أن تبليل الفراش إزداد سوءاً على نحوٍ تدريجي فأخذتني والدتي من مختص إلى آخر وأُعطيتُ أحدث جهاز للبلل مع منبه صوتي له نغمتان ووميض ضوئي ليقوم بتحذيري قبل أن يصبح الفراش مبللاً تماماً ولكنني كُنتُ أنام برغم صدور هذه النغمات معظم الوقت ولم تك معالجات والدتي لهذا الأمر ذات جدوى.

وفي البداية كُنتُ أنام على أغطية فراش وثوب نوم مستعمل من أختي بولين إلا أنه حالما أصبح تبليلي للفراش معضلة حقيقية أصرت والدتي على نومي من دون ملابس ومما جعلني أنام في معظم الليالي بملابسي الداخلية واستمر البلل مما جعل والدتي تتبعُ سياسة أخرى فأخذت تأتي إلى غرفتي قبل وقت النوم تماماً وتقوم بضربي لتذكيري بما سيحدث لي حال تبليلي للفراش كما كانت تنتظر حتى أستقر بفراشي فتدخل علي وتُلقي بالدثار بعيداً وتُمسك بي من طرف ملابسي الداخلية وتطرحُني عن فراشي ممسكة بتلابيب ثوب نومي مانعة إياي من الهرب بعيداً ثم تخلع نعلها وتضربني به وتسألني:

- "ماذا سوف تفعلين؟".

فأجيبها:

- "لن أبلل الفراش".

فتقول:

- "كاذبة، ماذا سوف تفعلين؟"

فأقول:

- "سأبلل الفراش".

ثم تقول:

- "نعم، هذا ما أعتقدته، هل ترين؟ أنتِ كاذبة".

فتصفعني على رأسي بالنعال وتلكمني على صدري وحين أقول "لا" تتهمني مجدداً بأني كاذبة وتصفعني مرة أخرى على جانب رأسي وتظل تُردد السؤال وأُردد أنا نفس الجواب فتصفعني في فخذي وساقيّ أو يدي وكُنتُ دائماً ما أحاول حماية نفسي برفع يدي عالياً إلا أن ذلك أكثر إيلاماً أما ساقاي فمحميتان نوعاً ما بثوب النوم وأحياناً كُنتُ أجذب ركبتيّ لأبدو كالكرة وبعد الكثير من هذا الضرب كانت والدتي تُغادر وفي يدها ثوب نومي بعد أخذه بالقوة من جسدي وفي مناسبات أخرى كانت تغادر ومعها دثاري وعندما تكون في مزاج سيئ جداً أو حينما أتسبب في إغضابها فقد كانت تأخذهما معاً وتُخبر أخواتي أن من تساعدني أو تُعيرني ثوب نومٍ ستتلقى الضرب أيضاً ومن ثم يصبحن شحيحات في ملابسهن في معظم الأحيان.

وعند بلوغي سن السابعة أصبح ضربي أكثر انتظاماً من ذي قبل كما فشل المنبه في إيقاظي إلا أن والدتي غالباً ما كانت تسمعه فتأتي مندفعةً إلى غرفتي وتجُرني خارج الفراش وببعض الأحيان عندما تدخل إلى غرفتي تُزيل أغطية الفراش المبللة وتصفعني بقوة على مؤخرتي العارية ثم تتركني عارية أرتجف فكان إذلالي مكتملاً ولم استطع قط منع نفسي من تبليل الفراش وإنما كان مجرد حضور والدتي وضرب وقت النوم يجعلني أغدو عصبيةً جداً إلى درجة أنني أحياناً أُفرغ مثانتي أمامها مما أعتبرته نوعاً من التحدي وفي أوقات أخرى أحملُ نفسي على البقاء مستيقظة إلا أني حالما أستغرق في النوم بسبب الإنهاك أقوم بتفويت المنبه ومن ثم تتواصل الدورة.

الفصل الثاني

فرد جديد في العائلة

١٩٦٢

في عام ١٩٦٢ كُنا نقطن في شارع رقم ٤ كونسلر وكان والداي ما يزالان مع بعضهما البعض إلا أنهما على وشك الانفصال ورغماً عن عدم إنسجامهما وقضاء أغلب وقتهما معاً في الصراخ والعراك وإساءة التصرف عموماً إلا أن والدتي كانت الأسوأ فقد كانت دائماً ما تحمِل على أبي ولم تك تخسر عراكاً قط.

في صباح سبتٍ من شهر يوليو حضر والدي إلى المنزل وكان قبلها في زقاق بيتيكوت فقام بإبتياع دجاجتين كبيرتين نُزع وحُرق ريشهما وأُفرغت أحشائهما ووصل في عربته البيضاء التي قام بركنها خارج المنزل وكانت إحدى الدجاجتين ملقاة على كتفه والأخرى محمولة من أقدامها المقيدة معاً فطرق الباب وبعدها إستخدم مفتاحه لفتح الباب الأمامي وقُمنا نحن الأطفال ركضاً إليه لنحييه ثم تبِعناه صعوداً لثلاثة طوابق من الدرج فسقطت الدجاجة الأولى من كتف والدي على طاولة في أعلى الدرج حينما أمال كتفه للأمام وإرتطمت الأخرى بقوة بالأولى وحينما كان يشق طريقه عائداً إلى الطابق الأرضي قال لنا والدي:

- "كيف هن فتياتي المفضلات؟".

وكانت والدتي من خلفه فصاح قائلاً:

- "صباح الخير يا كارميل"

ومن دون أن يأتيه رد فنزل وفتح الباب الأمامي وحالما خطى خارجاً أخطأت دجاجة رأسه بالكاد حيث قامت والدتي بإلقائها من النافذة وعندما نظرتُ عالياً أتت الدجاجة الثانية محلقةً في الهواء وأبتعد أبي متجنباً الدجاجة التي إرتطمت بالرصيف ومن الواضح أن ذلك أزعج والدي لأنه بدلاً من الدخول إلى سيارته عاد متجاوزاً إياي ومندفعاً بغضب إلى المنزل فقالت والدتي:

- "هلم، هلم أترغبُ في أن تموت؟ إذا رغبت في أن تموت فستنال ذلك، هلم".

طلب منها جورج أن توقف السخف وتذهب لتلتقط الدجاجتين- فلقد كلفتاه كثيراً من المال- وأن تتوقف عن تهديده فسحبت مقصاً من حزام خصرها بهدوء وحملته في يدها وقالت:

- "أترغبُ في أن تموت أيها الوغد؟ أترغبُ في ذلك؟".

فقال لها:

- "ماذا ستفعلين أيتها المرأة العجوز؟ هل ستطعنيني؟".

فقالت:

- "تاتي إلى هنا وأفضل ما تفعله إحضار دجاجتين ميتتين، ماذا تتوقع مني أن أفعل بدجاجتين ميتتين؟".

فقال لها والدي:

- "أحسني التصرف أيتها المرأة العجوز".

وبدأ بالغناء كما يفعلُ دائماً "لا دي دا، لا دي دا تي تي تي" وعَلِم أن ذلك سيغضبها فسألته مجدداً ماذا سوف تفعل بدجاجتين ميتتين وعندما تجاهلها وواصل الغناء ركضت نحوه وقالت له:

- "لا دي دا اللعينة".

ثم أندفعت بإتجاهه فوقع إلى الوراء من فوقي وحين أردتُ أن أساعده ليقف كان بطنه مغطأً بالدماء كما كانت تُغطي ثوبي الجميل وقالت:

- "أترغبُ في أن تموت، أترغبُ في أن تموت اليوم؟".

ورفعت المقص عالياً فوق رأسها مرة أخرى فقال لي والدي:

- "أحضري لي سيارة إسعاف، كلييري".

وكانت والدتي تصيح وتلعن أبي:

- "أحضرت دجاجتين ميتتين ولا دي دا في منزلي، أترغبُ في أن تموت؟".

وظل جورج واضعاً يده على بطنه بينما زحفتُ أنا من أسفل منه وهرعتُ لأحضر المساعدة فركضتُ حول المبنى لم أدر ماذا أفعل عدا ذلك وفي الوقت الذي عدتُ فيه وجدتُ أخواتي هناك مع سيارة الإسعاف والشرطة معاً فأخذت سيارة الإسعاف والدي وأخذت الشرطة والدتي والدجاجتين بعيداً وذهبت والدتي لفترة وجيزة وحين عادت ملأت دلو بالماء الدافئ ومسحت به السلم من الدماء وطلبت منا الذهاب إلى الفراش.

وفي وقتٍ لاحقٍ إكتشفنا أن والدي لم يرغب في تدخل الشرطة ولذلك رفض الإدلاء بإفادة عما حدث بالرغم من أنه إضطر إلى قضاء أسبوعين في العناية المكثفة بمستشفى سينت جايلس ولم يك مسموح لنا بزيارته في ذلك الوقت وعندما خرج من المستشفى لم يستطع الحركة كثيراً إلا أنه أرسل صديقه في يوم الأحد التالي لإيصال الطعام إلى منزلنا. وكان والدي يبتاعُ الطعام أسبوعياً كما أنه كان من المفترض أن يقطن والدي مع أسرته إلا أنه كان يقضى وقتاً أكثر فأكثر بعيداً عن المنزل وكلما حضر إلى المنزل كانت والدتي في انتظاره ولم يبدأ جورج في زيارة المنزل مجدداً حتى شهر سبتمبر حيث كان حريصاً على إبقاء مسافة بينه وبين والدتي والبقاء بالخارج وفي تلك الأوقات كانت والدتي تنضُم إلينا عند الباب وتتجادل معه أو تطلبُ مني ومن أخواتي العودة إلى داخل المنزل وتُغلق الباب بعنف في وجهه إلا أنه كان يتجاهلها وفي البدء كان لا يدخل إلى المنزل إلا أنهما في شهر نوفمبر عادا إلى طبيعتهما الأ وهي المجادلة والعراك وكُنتُ أنا وأختاي دائماً في قلب المعركة ودائماً ما كان رأي والدتي أن والديي لا يعطيها المال الكافي وكانت إحدى وسائلها في توفير المال تتمثل في عدم إعطاءنا الغذاء الكافي كما إعتادت على إغلاق خزانة الطعام ووضع المفتاح في صدريتها وذات يوم كُنتُ أنا وأخواتي جائعات فسألتُها عن إمكانية حصولنا على بعض البسكويت فقالت بأن لدي والد وأن علي البحث عنه وطلب البسكويت منه ثم تجاوزتني ولم نحصل قط على البسكويت. وفي وقتٍ لاحقٍ في ذلك الأسبوع كنا نتناول الإفطار فصعدتُ على كرسي وسكبتُ بعضاً من الكورن فليكس في قدحي وكان هنالك حليبٌ دافئ ومياه محلاة لوضعهما معه وكانت أخواتي يتناولن أقداحهن سلفاً وبالخطأ سكبتُ شيئاً من الكورن فليكس على ثوب نومي فأنتزعت والدتي القدح مني وأفرغت محتوياته في الحوض وقالت لي متجهمةً:

- "أذهبي وأبحثي عن والدك ليعطيك الكورن فليكس".

فأمسكت كلٌ من بولين وباتسي بقوة على أقداحهن ولم تأخذها هي منهن فأستأت استياءً شديداً إذ لم يكلها الحق في انتزاع الكورن فليكس الذي يخصني وترك ما يخصهما وقد قامت أختاي بإلتهام نصيبهما بالكامل في سرعة البرق.

إزدادت معارك جورج وكارمن سوءاً مع الوقت وأخذ يثير غضبها بعدم تركه لحافظة أمواله في مكان يسهُل عليها الوصول إليه حيث كانت دائماً تحاول اصطياد حافظته وحالما تجدها كانت تأخذ أكبر قدرٍ من المال وقضى والدي جُلّ وقته للبحث عن مخابئ للحافظة ورأيتُه ذات مرةٍ وهو يُخبئ أمواله خلف الراديو حيث كُنتُ مستلقية على بطني خلف الاريكة

في غرفة النوم أشاهده فرأيتُه يفكك الجزء الخلفي من الراديو ويضع أمواله داخله ومن ثم أعاد إغلاقه ثم أخذ مبلغاً آخر ووضعه في حذائه مُغطياً إياه بالجوارب.

دخل جورج وكارمن في جدالٍ كبيرٍ حول المال قُبيل آخر مرة يُغادر فيها وكُنتُ مُختبئةً خلف الأريكة مرة أخرى – وقد كان المخبأ المفضل لدي- حيث كُنتُ أزحفُ وأستلقي بلا حراك من دون أن يُفكر أحدٌ في البحث عني هنالك فحضر والدي إلى المنزل في ذلك اليوم وخلع حذاءه ثم وضع أمواله داخله وأستلقى فقامت والدتي بسرقة تلك الأموال وهو نائم وعندما استيقظ تعاركا وفي ذلك اليوم خاصة كان والدي قد كان حانقاً عليها فقام بصفعها أثناء الجدال فردت الصفعة عليه ثم سبَّها وضربها من الخلف فسقطت على الفراش لكنها نهضت سريعاً للتعارك فقام بدفعها بشدة مما جعلها تطيرُ عبر الفراش لتهبط ونصفها على الأرض ويدها فوق شماعة معاطف سلكية فنهضت تسُّب وتُهدد بإتجاه والدي وبغباء أدار لها ظهره ليبتعد فأمسكت به بالخطاف الأيسر حيث إخترقت الشماعة وجهه تحت الفك مباشرة وخرجت من الجهة الأخرى وعندما قامت والدتي بجذبها تمدد وجه والدي كبالون العلكة فأمسك بيدها وبشماعة السلك وأخبرها أنها إذا رغبت في الموت ذلك اليوم فعليها مواصلة الجذب ولابد أن النظرة في عينيّ والدي أخبرتها أن كلامه يتسم بالجدية فجذبت قليلاً ثم رأت أنه من الحكمة عدم فعل ذلك عندما إنفجرت الدماء من وجهه وتجاوزته راكضة خارج الغرفة وتقهقرتُ أنا داخل الفجوة بين الأريكة والجدار.

أدار والدي شماعة الملابس وأسقطها من وجهه وأخيراً بمجرد إزالتها بدأت الدماء تتدفق بسرعة مغطية وجهه ومحولة لون شاربه إلى الأحمر فأخذ منشفة كبيرة لسد الفتحة في وجهه وغادر المنزل ولم نره مرة أخرى لفترة طويلة وكان عادةً ما يبقى بعيداً عنا لعدة أسابيع أو نحو ذلك إلا أن هذه المرة كانت أطول وعندما عاد إلى المنزل تجاهلته والدتي في البدء ولكن لكوننا دائماً سعداء لرؤيته كانت تذهب إلى مكان أخر وقد تهدأ بعد حين ولكن بعد أسبوع أو اثنين تعود إلى سابق عهدها ولابد أنها حمِلت بأختنا الشقيقة الصغرى كريستين في هذه الفترة.

ومع إزدياد حجم والدتي كانت ما تزال نشطة وعدائية وما زالت تتعارك وتتحدى والدي عند كل سانحة وكان والدي قلما يأتي إلى المنزل حيث مرت الأسابيع من دون رؤيتنا له وأصبح سلوك والدتي عنيفاً ولكوني أصغر الأخوات فقد كُنتُ دائماً عقبة في طريق والدتي وأختيّ كما كُنتُ عقبة في طريق نفسي وإحدى بواكير ذكرياتي كانت تتمثل في إصطدام والدتي المتعمد بي حتى أسكُب الشراب ومن ثم تجدُ حجة لضربي وكُنتُ لا أُعير الكثيرٌ مما تفعله والدتي بي أدنى إكتراث حينها بل كُنتُ أعتبره مجرد أفعال لأم غير عطوفة.

وفي نوفمبر من عام ١٩٦٢ ذهبت والدتي فجأة إلى المستشفى وأُخبرنا بأنها سترزق بطفلٍ وأنها ستمكُث بعيداً لفترة وقُبيل ذهابها حضر مستأجرٌ للبقاء معنا وكان اسمه بيم وهو من نفس المقاطعة التي جاء منها والديّ في جامايكا وكان بيم طاعناً في السن كما كانت لديه مشكلة في التوازن فكان متثاقل الخطى بل لم يك يسير مطلقاً وإنما كان يجر قدميه ثم يتوقف ثم يجرهما مرة أخرى كما كان يتشبث بالأشياء من حوله كالدرابزين وغيره ليظل واقفاً وكان يُعاني من الرعشات أيضاً فكان كثيراً ما يرتعش حينما يحاول رفع أي شئ وكان بيم المسكين حبيس المنزل فعلياً وهو من يرعانا في غياب والدتنا ولقد أحببتُ بيم فقد كان مسناً لطيفاً وودوداً وكان يقطن في أعلى المنزل في غرفة النوم الخلفية ويقضي معظم وقته هنالك إلا أنه قد يُغامر مرة بالخروج ويجلس للتحدث مع والدتي في غرفة الجلوس عن الأيام الخوالي في جزر الهند الغربية وكانت معرفتي ببيم جيدة جداً وأعتقد أنه من الإنصاف القول أنها كانت علاقة خاصة.

حضر والدي إلى المنزل ذات يومٍ وأخبرنا بأنه أصبح لدينا أخت اسمها كريستين وهي تزن ٧ أرطال وأخبرنا كذلك بأن والدتنا ستعود إلى المنزل في غضون الستة أيام القادمة وكانت بولين حينها في الثامنة من عمرها وكانت هي المسئولة عن المنزل كما طلبت والدتي من صديقين لها وهما زوجان يدعيان جورج وروز العناية بنا وكان جورج معروفاً باسم جورجي بورقي وكان يقطن مع روز الاسكوتلندية وكانا ودودين مع والدتي.

حضر كلٌ من جورجي بورقي وروز باليوم التالي وكان جورجي طويل القامة وأصلعاً أما روز فكانت شقراء ذات لونٍ كلون البلاتين وذات شعرٍ مجعد وفي أول يوم حضرت فيه كان في مقدمة شعرها أنابيب تنظيف كما كانت نهاية الشعر مثبتة في مكانها بوشاح وكان الوشاح مربوطاً من الخلف إلى الامام بقطعة قماش على شكل مثلث مع ربطة في المقدمة وكانا يقومان بتسليتنا لبعض الوقت وكان جورجي بورقي يطلب مني الجلوس معه ففعلتُ حيث جلستُ بجانبه فحدثنا بقصص جورجي بورقي والتي كانت مضحكة جداً فأضحكتنا ثم بعدها طلب مني أن أجلس في حضنه – وعلى حسب علمي– لم أجلس في حضن والدتي قط وكان جورج بورقي رجلاً لطيفاً فجلستُ على ساقيه المغلقتين بأرجلي المُبعدة فوضع ذراعه على خصري وسألته روز إذا كان يرغب في الشاي فقال "نعم" فغادرت الغرفة.

قال لي جورجي بورقي:

– "هل تعلمين ماذا يفعل جورجي بورقي؟"

ودغدغني أسفل ساقي خلف ركبتي فقلت:

- "لا".

فقال:

- جورجي بورقي البودنغ والفطيرة يُقبل الفتيات فيُبكيهن".

وأعتقدنا جميعاً أن هذا شئ مضحك وبدأنا بالغناء "جورجي بورقي البودنغ والفطيرة يُقبل الفتيات فيُبكيهن" فقام بتحريك يده على بطني على هيئة عناق الدب من الخلف وأعتصرني إلى داخل فخذه وسألني:

- "هل أحببتِ ذلك؟ " جورجي بورقي البودنغ والفطيرة يُقبل الفتيات فيبكيهن وحين تذهب الفتيات إلى الفراش يُصبح لجورجي بورقي رأس كبير".

دلف بيم إلى الغرفة وطلب مني جورجي بورقي أن أجلس في مكان أخر حيث قال لي:

- "أذهبي وألعبي مع أخواتك".

فسار بيم متثاقلاً إلى كرسي بجانب النافذة وجلس عليه ثم حضرت روز ومعها بعض من أكواب الشاي وسألت عن مكان الحليب فأنطلقتُ لإحضار الحليب من غرفة والدتي وعند انتهائهما من احتساء الشاي أخبرانا بأنهما سيحضران باليوم التالي وكل يوم حتى تخرج والدتي من المستشفى فقال بيم أن ذلك ليس ضرورياً لأنه يستطيع تدبر الأمر.

حضر والدي في تلك الليلة وكان في مزاج سيئ فأخذ يُدخن سيجارة والأخرى بيده حيث كان ينقُر بها على علبة السيجار فتحدث مع بيم في أعلى المنزل ثم عاد نزولاً وقرر أن يعود إلى المستشفى ويأخذني معه فذهبنا إلى مستشفى لامبيث وشققنا طريقنا إلى العنبر وكانت والدتي في عنبر يضم أربع نساء وكانت تبدو بصحة جيدة وبجانب فراشها كانت اختنا الطفلة كريستين ملفوفة بدثار ونائمة وكان لديها شعر أسود مستقيم وغزير وعيناها مغلقة كما كان لديها أنفٌ صغيرٌ كالزرار وكان يبدو غريباً جداً وكأنه سُحق. أخبرت والدتي أبي بأنها ستعود إلى البيت خلال أربعة أيام فسألها والدي إن كانت ترغب في شئ ليحضره لها ولاحظتُ وجود فاكهة كثيرة بجانب الفراش.

بدت السيدة التي كانت ترقدُ في الفراش الآخر بيسار والدتي مضطربةً وظلت تحدق في أبي ومن ثم تحدق بوجهي وعندما أنظُر نحوها وأبتسم لها كانت تدعي عدم الانتباه وكانت هذه السيدة ذات بشرة سوداء داكنة مقارنة بوالدتي وكُنتُ أنا ذات بشرة سوداء إلا أن بشرتها كانت أكثر سواداً وكانت تبدو مخيفةً إلى حدٍ بعيدٍ تحت الغطاء الأبيض مما قد يجعلها تصيبني

بالكوابيس وكانت والدتي ذات بشرة بنية جذابة كما كانت جميلة جداً مما دعاني إلى التساؤل لماذا يسمحون لإمرأة دميمة مثلها بالإقامة في نفس العنبر مع والدتي وكان المهد المجاور لفراش السيدة فارغاً ولم يك هنالك فواكه أو أزهار في خزانتها ولم يك هنالك أيضاً مجرد كرتٍ لفتاة أو فتى بجانبها فلقد كانت تتظاهر بالأمومة وكانت هنالك لأنها ترغبُ في طفلٍ وأرادت منا أن نُشفق عليها كما لاحظتُ وجود حقيبة صغيرة خضراء اللون بجانب فراشها وزوجي نعال بجانب بعضهما البعض.

في وقتٍ ما قالت والدتي:

- "جورج، أريدك أن تقابل سيدة ويليمز".

قال والدي:

- "مرحبا".

فردت هي:

- "مرحبا".

فقال لها والدي:

- "أين طفلك؟".

فقالت أنه ليس لديها طفل ثم غادرنا حين أخبرتنا الممرضة أن "الأمهات السعيدات بحاجة إلى النوم" ولم تبد السيدة ويليمز سعيدة إلا أنها كانت تبدو بحاجة إلى بعض النوم.

حينما عُدتُ إلى المنزل أخبرتُ أخواتي عن الطفلة كريستين ووعد والدي بالعودة في اليوم التالي لأخذنا لرؤيتها وفي صباح اليوم التالي أحسستُ بسعادة غامرة فلقد كان المنزل لطيفاً من دون والدتي حيث تناولتُ الكورن فليكس مع الحليب في الإفطار وبعدها ذهبتُ إلى غرفة والدتي وجلستُ على الأريكة ولم يُوبخنِ أحد حتى أنني أكلتُ بعضاً من البسكويت كما كان بيم لطيفاً معي ولم يُمانع ذهابي إلى غرفته.

حضر والدي الى المنزل وسأل من منا يرغبُ في الذهاب لرؤية والدتي فأقترح بيم أن أذهب مرة أخرى لوحدي وذلك ما حدث فركبتُ بالخلف في عربة والدي الكابري وأخذني إلى المستشفى وفي ذلك اليوم كانت والدتي جالسةً على كرسي وفراشها مُرتب فأعطاها والدي بعضاً من الحليب والفاكهة التي جلبها معه فقالت له والدتي بأن لديها شيئاً تُريد إخباره به ثم

قالت له بأنها أخطأت بالأمس حينما قام بزيارتها إذ أنها لم تخبره بأنها رُزقت بتوأم بدلاً من فتاة وفي أثناء كلامها قامت والدتي بسحب مهد الطفل تجاه والدي وكان في المهد طفلتان واحدة ذات بشرة داكنة جداً والأخرى عرفتُها منذ اليوم السابق ذات الأنف الزرار حيث كانت أختي لكن الآن أصبح لدي أختان.

طلب والدي من والدتي تكرار ما قالته للتو وسار بهدوء تجاه المهد ونظر بداخله وكان الفرق بين الطفلتين واضحاً حيث كانت إحداهما جميلة كوالدتي والأخرى دميمة فقال لها والدي أن الطفلة التي ترقُد إلى اليسار ليست ابنته ولو أنها رُزقت بتوأم فلما لم تذكر ذلك؟ حيث أنه من المحال نسيان أمرٌ كهذا ثم تجادل جورج ووالدتي بعدها وذلك لأن والدي طلب منها أن تُبعد الطفلة السوداء عن المهد إلا أنها رفضت وعند هذه النقطة حضرت الممرضة وطلبت من والدي عدم مضايقة الأم السعيدة وأنه إذا لم يقم بخفض صوته فستطالبه بالمغادرة ولذا بهدوء أكثر إلا أنه كان ما يزال غاضباً حيث رفض والدي تقبُّل أن تلك الطفلة السوداء ابنته وعندما لم تتزحزح والدتي عن قولها بأنها رُزقت بتوأم غادر والدي العنبر وتبعتُه أنا ولم يتحدث إلي في رحلة العودة إلى المنزل وعندما ترجلنا من العربة اندفعتُ لأُخبر أخواتي بما حدث بينما ذهب أبي للتحدث مع بيم وكانت هنالك الكثير من الإثارة حيث أصبح لدينا الآن اختان بدلاً عن واحدة ثم غادر والدي المنزل ذلك المساء ولم يعد خلال تلك الفترة التي كانت فيها والدتي بالمستشفى.

حضر جورجي بورقي مع روز ومرة أخرى أخبرنا جورجي قصص وطلب مني الجلوس في حضنه فغنيتُ أغاني جورجي وقام هو بمعانقتي كالدب ودغدغني أسفل يديّ وعندما مللتُ من الدغدغة طلب من إحدى أخواتي بالجلوس على حضنه فلم يفعلن لأن بيم طلب منا مغادرة الغرفة جميعاً واللعب في مكان آخر فقال جورجي بورقي أن بيم أفسد متعته إلا أن بيم قال بأنه المسئول حتى عودة كارمن فغادرنا جميعاً الغرفة وغادرت روز وجورج بورقي المنزل.

بعد عدة أيام عُدنا إلى المستشفى وما زالت والدتي تحتفظُ بالطفلتين السوداء والسمراء بجانب فراشها ولم تزل السيدة السوداء في الفراش الآخر من دون ازهار أو كروت على الطاولة بجانب فراشها فأراد والدي كشف لغز الطفلة الغامض وأخبر والدتي أن الطفلة ليست ابنته وطلب منها عدم اصطحابها معنا إلى المنزل ثم ضغط والدي على زر النداء واستدعى الممرضة وعندما حضرت سألها والدي عن عدد الأطفال الذين رُزقت بهم والدتي فذهبت الممرضة ثم عادت وقالت له "واحدة" وعادت إلى عملها.

طلب والدي من والدتي تفسيراً فبدأت والدتي بإخباره أن الممرضة لا تدري عما تتحدث عنه وأنها لم تك حاضرة ساعتها وأنها لم تر سجلات المواليد فكيف لها معرفة عدد الأطفال الذين رُزقت بهم؟ ثم ألم يسمع والدي بالتوائم غير المتطابقة. إعتقدتُ أنه من المثير أن نحظى بأختين واحدة حقيقية وأخرى هبة وهل ذلك حقيقةً يهم أن والدتي رُزقت بطفلة أو طفلتين؟ وكانت المرأة السوداء في الفراش الآخر مختبئة خلف الستائر فقالت عندها:

- "إنها لي، هذه الطفلة لي".

سأل والدي:

- "ماذا تعني بأنها لها؟".

أزاحت السيدة ويليمز الستائر جانباً فأصبحت قبالة والدتي وقالت مجدداً:

- "الطفلة لي".

أخبرت والدتي والدي بأن السيدة لا ترغبُ في طفلتها وأنها أعطتها لنا ولم أُصدق أذنيّ إذ كيف يرغب أحداهم في أن يهب طفلته؟ كُنتُ أنا بدوري طفلة ولم أفهم ما حدث إلا أن جورج شرح لي في وقتٍ لاحقٍ أن السيدة ويليمز كانت على علاقة سعيدة بزوجها وهو جندي وكان بعيداً عن الوطن ولم يعلم بحملِها من علاقة قصيرة مع رجل آخر وهو والد الطفلة والذي حاول إقناع السيدة ويليمز بالإبقاء على الطفلة والعيش معه إلا أنها رفضت لأنها ترغب في العيش مع زوجها ولم تك تنوي إخبار زوجها بالطفلة وأنها إذا وهبت الطفلة فلن يعلم أحد بذلك فعرضت والدتي عليها أخذ الطفلة واتفقتا فيما بينهما على إقناع والدي بأن لديه توأم.

غضِب والدي لأن الامهات السعيدات حاولن الإيقاع به للقبول بالتوأم وإلى جانب ذلك فإن طفلة ويليمز لم تك سوداء فحسب بل أنها كانت دميمة كذلك وأخبرها بأنها تستطيع إحضار طفلة واحدة فقط إلى المنزل وهي كريستين وأنها ستواجه مشكلة إذا أحضرت طفلة شخصٍ آخر ووصف الخطة بكاملها على أنها جنون فقالت والدتي أنها ستأخذ الطفلة معها إلى المنزل وبما أنه لا يقطن معنا بشكلٍ تام فليس هذا من شأنه وبعد عدة أيام عادت والدتي إلى المنزل بسيارة أجرة حاملة الطفلتين واحدة تحت يدها اليمنى والأخرى تحت اليد اليسرى وكانت تصحبها امرأة من المستشفى حاملة لها الحقيبة كما ساعدتها عند الباب وبذلك إنضم التوأم إلى أسرتنا السعيدة وكُنتُ حينها صاحبة الرقم خمسة في العائلة إلا أنني الآن واحدة من سبعة أطفال بولين، باتسي، أنا، كارل، مارتين والتوأم.

أطلقت والدي على التوأم اسمي كريستين ودينيس وتشاركتا المهد معاً ثم حضرت العاملة في الخدمة الاجتماعية لزيارة والدتي كما حضرت القابلة للفحص اليومي حيث كانتا قلقتين جداً لكيفية تدبرها للأمر ولقد كانت في ذلك الوقت أماً لخمسة أطفال ولن يُحدِث الطفلان الآخران فرقاً يذكر. رفض والدي كل ما يخص دينيس وطلب من والدتي إعادتها إلى حيث تنتمي إلا أنها لم تفعل قط واندمج التوأمان اندماجاً كاملاً مع بعضهما فأطلقت والدتي اسم جميلتي على كريستين واسم سودائ على دينيس كما سُميت كريستين أيضاً بالأزرار وذلك نسبة لأنفها.

بعد حوالي أسبوع من إحضار التوأم إلى المنزل حضرت السيدة ويليمز لرؤية والدتي ولم تمس طفلتها مطلقاً حيث كانت ترغب في تبني والدتي لدينيس بأسرع وقت ممكن وحضرت فقط للتوقيع على جميع الاستمارات المتعلقة بذلك ووافقت والدتي على تبني دينيس فقامت السيدة ويليمز بتسليمها خمسة وعشرين شلناً وإستحقاقات الإعانة الأسرية التي أصبحت مخولة لوالدتي ولم أر السيدة ويليمز قط مرة أخرى حتى أصبحت دينيس في الخامسة عشر من عمرها.

أصبح الآن لوالدتي توأم فأضحت توجه جآم غضبها وإحباطها تجاهنا في حين كانت من قبل تنتهرُ وتُجادل والدي فلقد صارت الآن تنتهرنا وتقوم بلكمي من الخلف أكثر من المعتاد كلما مررتُ بجانبها وكانت تصفع وجهي عندما أُسئ التصرف وتقرصني في صدري عندما أكون قريبة منها ولم أعلم قط لما رغبت والدتي في الأطفال مع أنني لم أك أعتقد أبداً بأنها أحبتني أو أحبت إخوتي وأخواتي في يوم من الأيام ولماذا أنجبت العديد منا فهذا لغز؟ وربما كنا نخدم بعض أغراضها وأن توافق على أخذ طفل أحد آخر في حين أنها لم تظهر أي رغبة في أطفالها وهذا ما لا يبدو منطقياً بالنسبة لي ومن ثم أصبح سلوكها أكثر سوءاً.

وفي السادسة من عمري صارت تضربني على نحوٍ أكثر انتظاماً من ذي قبل وأستمر المنبه في فشله في إيقاظي بالوقت المناسب كما تسبب لي تبليلي الفراش في الضرب إما بحذاءٍ أو بحزامٍ أو عصا ومع مرور الوقت أصبحتُ عصبية جداً ومتوثبة كلما كُنتُ في مرمى إصابتها وخرج تبليلي للفراش عن السيطرة وذلك لنومي خلال الليل وعادة ما كُنتُ أستيقظ عندما أحس بيدٍ تتحسس ما تحت ملاءات الفراش لتعثر على بقعةٍ بللٍ فلئن كان الفراش مبللاً فسيتم سحبي من الفراش من أطراف ملابسي الداخلية أما إذا كان جافاً فيتم تحذيري بالعواقب إن جعلته مبللاً. وذات صباحٍ كُنتُ أحلمُ في فراشي ولم أسمع والدتي وهي تدلف إلى الغرفة وكُنتُ مستلقيةً على ظهري أُفكر في أشياء جميلة عندما أحسستُ بلكمةٍ في بطني سلبت أنفاسي

ولم تتفوه بحرفٍ بل وقفت في مكانها تنظر إلي ونظرتُ اليها بدوري ومن ثم غادرت الغرفة وعُدتُ أنا إلى أحلام اليقظة بعينين مفتوحتين.

إنتقلنا في عام ١٩٦٣ من طريق مايات إلى شارع رقم ٦ بارنيت وكان المنزل ملكاً لوالدتي ولذلك أعطاءها الإنتقال إليه حريةً أكثر ولم يك بإستطاعة أبي الحضور ببساطة كلما رغب في ذلك إذ أن المنزل ليس ملكاً له ولا أدري كيفية تدبرها شراء منزل باسمها بينما المصدر الوحيد للمال الذي تملكه هو والدي فشغلنا الطابق العلوي والملحق الخلفي العلوي وغرفة في الطابق الأوسط بينما كانت بقية المنزل من نصيب المستأجرين وهم خالتنا آنا بكلي وأطفالها والزوجان المعروفان لدينا بجورجي بورقي وروز ووضعتني والدتي في الأعلى لوحدي بالعلية التي كانت بأعلى المنزل ولم تك مثل ذلك النوع من الغرف التي قد يرغب أي شخص في البقاء فيها لوقتٍ أطول حيث أن المطر يتسرب بداخلها في الطقس الردئ جداً مما قد يُطلق ذلك في بعض الأحيان الإنذار ويوقظني من النوم وبالتالي لم أك وحدي من يُبلل الفراش بل يفعلُها المطر أيضاً وكان شارع بارنيت لا بأس به حيث كان هنالك العديد من الأطفال في الجوار وفي الشارع المقابل لنا كان يُوجد مجلس البلدية وهو بناية كبيرة بها شقق بعلوٍ أربعة طوابق وكان من النادر جداً السماح لنا باللعب خارجاً بالشارع ولا اللعب كثيراً داخل المنزل لوجود الكثير من العمل لأدائه وعندما نلعب يكون ذلك في الباحة خلف المنزل.

كان مرحباً جداً بجورجي بورقي وروز وكان جورجي بورقي مضحكاً جداً كما كان دائماً لديه الوقت للعب معنا أثناء مروره بنا في السلالم أو عندما يأتي إلى قسمنا من المنزل للتحدث مع والدتي فكان لطيفاً خاصةً معي وكان والدي يزورنا أحياناً ولكنه لا يبقى لوقتٍ متأخر كما كانت تقضي والدتي بعض الأمسيات من الأسبوع خارج المنزل وأخبرونا بأن لديها وظيفة بدوام جزئي وعند عودتها كانت تحضر الكثير من قوالب الحلوى تقوم بتوزيعها علينا إن أحسنا التصرف وحين تكون خارج المنزل كان جورجي بورقي وروز يهتمان بنا فأصبحا جلساء طفولة لنا.

قطنا في ذلك المنزل لحوالي ستة أشهر وذات يوم كان جورجي بورقي وروز يرعياننا وكنا جميعاً في الباحة فوجدت بولين وباتسي فراشة جريحة فتجمعنا حولها مُحاولين جعلها بحالٍ أفضل فخرج جورجي بورقي ونظر من فوق أكتافنا ونحن جاثمين حول الكائن وسألنا:

- "هل آذيتم الفراشة؟"

قلنا جميعنا:

- "بالطبع لا".

وقلت له:

- "نريد أن نجعلها بحالٍ أفضل يا جورجي بورقي".

فقال لي:

- "فتاة صالحة".

ووضع يده حول كتفي ثم قال لي مرة أخرى وربَّت على مؤخرتي مرتين بكفة يده اليمنى:

- "فتاة صالحة".

واصلنا اللعب وذهب جورجي بورقي إلى ركن بعيد من الباحة وعاد ومعه يرقان كبير ذو شعر بني وكان على أصبعه السبابة الممدود وفي البدء كان اليرقان يتحرك ببطء ويمط جسده حتى أصبح بطول أصبع جورجي ومع فعله ذلك كان يرفع رأسه كأنه ينظر من حوله فأزدحمنا حوله ولكن بمسافة آمنة وحينها إنسحبتُ بعيداً عن جورجي بورقي فأستدعاني مجدداً:

- "يا كلييري، كليري، عودي، هلمي وأنظري إلى اليرقان لن يؤذيك، كوني فتاة مطيعة وألمسي اليرقان".

رفضتُ ذلك وقُلتُ له:

- "إنه زاحف مقرف، أنا لا أحب الزواحف المقرفة".

فقال:

- "لا، إنه ليس كذلك، إنه جميل وقريباً ما سيصبح فراشة، هلمي وألمسيه".

وبينما جورجي بورقي متحرك للأمام دعاني بأن لا أقلق ووعدني بإنزاله ثم سار إلى الركن البعيد من الباحة وعندما عاد فتح يديه قائلاً:

- "أترين؟، لا يوجد يرقان".

واصلنا اللعب وجورجي بورقي يُشاهد وبعد دقائق قليلة عاد إلى الركن حيث وضع اليرقان ثم عاد إلينا وقال:

- "اختفى اليرقان".

فسألته:

- "أين اختفى؟"
- "أعتقد أنه كان وحيداً جداً هنالك ولذلك عاد لينضم إلينا".

فقلتُ له وأنا أحدق حولي:

- "أين هو؟".

قال جورجي بورقي:

- "لا أدري، لابد أن تبحثي عنه".

قلتُ:

- "أنت سخيف يا جورجي بورقي، كيف يمكنه العودة؟ لا تستطيع اليراق السير بتلك السرعة أنظر يا جورجي بورقي أنا يرقان آتي لأنال منك" وزحفتُ بإتجاه جورجي بورقي واصطدمتُ به وفي هذه الأثناء ضحكت أخواتي.

فقال:

- "حسناً، لابد وأنه هنا في مكانٍ ما وعلى أن أبحث عنه فنظر في شعر أختي، لا، ليس هناك".

أدارها ونظر من خلفها:

- "لا، ليس هناك".

رفع ثوبها ونظر في أرجلها:

- "لا، ليس هنالك، باتسي أنتي التالية، هل أخذتِ اليرقان؟"

قالت باتسي:

- "لا وركضت إلى داخل المنزل يا للهرة الغالية".

ثم سار بإتجاهي:

- "يا كلير لابد أنه بحوزتك، أعتقد بأني أرى شيئاً قفي بثبات يا كلير".

قلتُ:

- "أبعده عني، يا جورجي بورقي سريعاً"

فقال لي:

- "أبعدي يديك ببطء".

رفعتُ يديّ فربَّت عليهما:

- "لا، ليس هناك".

وبعدها ربَّت على شعري:

- "لا، لا أجده"

سألتُه بقلق:

- "هل أخذته يا جورجي بورقي؟".

فأجابني:

- "إشش، مازلتُ أبحث، ليس هناك في الأعلى ولذلك لابد أن يكون هناك بالأسفل وانحني وربَّت على حذائي ثم بدأ من خلف ساقيّ وشق طريقه إلى مؤخرتي"

سألتُه:

- "هل أخذته يا جورجي بورقي؟".

فقال:

- "لا، مازلتُ أبحث".

وحرك يده من خارج فخذي إلى داخل ساقي وربَّت على عضوي وقال:

- "لا، لا أراه، لابد وأنه مختبئ دعينا نبدأ من الأعلى استديري، أها، هاهو".

كان اليرقان العملاق ممدداً خلف رقبتي فصرختُ:

- "أبعده، أبعده، أبعده يا جورجي بورقي سريعاً، بعيداً، بعيداً، بعيداً، يا جورجي بورقي".

فقال:

- "اهدائي يا كلييري، كلير، جورجي بورقي سيبعده عنكِ".

ومازلتُ أصرخُ:

- "بعيداً، بعيداً، بعيداً يا جورجي بورقي".
- "أوه، ها أنت، أيها اليرقان الشقي كنا نبحث بجميع كلير عنك لقد عرفت بأننا سنجدك أيها اليرقان الشقي فعندما أضعك أرضاً ستبقى مكانك ولا تتسلق على كلير، هل تفهم؟".

تجمدتُ مرعوبة من اليرقان وفي تلك اللحظة خرجت روز وسألتنا ما كل هذه الجلبة؟ وطلبت مني أن أهدأ فأوضح لها جورجي بورقي أن يرقان شقي زحف خلف عنقي ولكنه وجده ودفع سبابته بإتجاه روز ثم قال:

- "أترين، يرقان شقي".

فقالت لي روز:

- "هلمي معي إلى الداخل يا حبيبتي ودعينا نحتسي كوباً صغيراً من الشاي سيُهدئك".

فدخلتُ مع روز.

الفصل الثالث

والد جديد

١٩٦٤

لم أكترث كثيراً لأمر إيستمان عند ظهوره الأول فقد كان شخصاً لا وزن له وكان ضخم الجثة ودميماً ذو أكتاف عريضة وسيقان غليظة. يُطلق الهنود الغربيون من الجزر الكبرى على أولئك القادمين من الجزر الصغرى صفة من لا وزن لهم أما الجمايكيون فيُطلقون على الكل صفة من لا وزن لهم ولقد جاء إيستمان من باربادوس إلا أنه ظل عديم الوزن في تقديرنا وكان يعمل في المغسلة عند ركن طريق ميات وهو جوار منزلنا القديم الذي كان ملكاً لأبي وكان عادة ما يتسكع في منزل والدتي وفي حقيقة الأمر فقد كان في البدء عشيقاً لخالتي عندما كانت خالتي آنا تقطن معنا في شارع رقم ٦ بارنيت فكان إيستمان يزورها مرة في الأسبوع وكانت آنا قريبة والدتي في الحقيقة فأصبحتُ مدركة لحقيقة إيستمان عندما إنضمت والدتي لهم وكان ذلك شيئاً عادياً في البدء لكنه سرعان ما إنضمت والدتي اليهما حيث حلاَّ.

ومع الوقت أخذ إيستمان يزور والدتي فحسب وكان يجلس في مطبخنا وبدت علاقتهما واضحة كما بدا عليهما الإنسجام وكان عادةً ما يحمل نسخة من صحيفة "الصنداي" معه ولكُم تصور مدى مفاجأتي عندما إكتشفتُ لاحقاً أنه لا يستطيع القراءة وكان عادةً ما يأتي عندما نكون على وشك الذهاب للفراش وكانت والدتي تقوم بتحضير وجبة دسمة تتركها له في الفرن على نار هادئة وكانت حصص ضخمة في طبق البايركس الكثير والكثير من اللحم والطماطم والجزر وكانت حصة واحدة كفيلة بإطعامنا أكثر من مرتين لعدة أيام وبدا أنه كان يقضي وقتاً متزايداً معها في المطبخ وكانت والدتي شديدة الإنشغال تماماً قبيل وصوله حيث كانت تنتظره وتحرص على عدم شكواه ولم أستطع تصديق الأمر بعد الطريقة التي قامت فيها بضرب أبي وطعنه وصراخها فيه والإساءة إليه وهي الآن تتصرف بكل هذا الغباء مع هذا الرجل ضخم الجثة.

ووقتما كان إيستمان يصل كنا نُؤمر بالإبتعاد عن ذلك المكان كما يتوجب علينا الذهاب للفراش باكراً وكما لابد للمنزل أن يكون نظيفاً ولم يرق لي إيستمان مطلقاً ولا أعلم ماذا كان والدي سيقول لو علم بذلك وعلى كل حال فإن إيستمان لم يكترث لأمرنا على الإطلاق وبعد حين أصبح يأتي إلى المنزل مرتين في الأسبوع على الأقل ثم أنقلب الأمر إلى مرحلة أصبح فيها دائم الحضور وكان بيم معظم الوقت في غرفته وحينما يكون برفقة والدتي لم يك يتطرق إلى أمر إيستمان كما كان من النادر وجود بيم في الطابق الأرضي في وجود إيستمان.

وبعد نحو ستة أشهر بدأ إيستمان في الظهور عند ساعات الصباح الباكر حيث كان في المطبخ يتناول إفطارنا عند إستيقاظي ولم يك مسموحاً لنا الحضور إلى المطبخ وهو بداخله حيث كان علينا الإنتظار حتى يتناول طعامه وحينما يحضر لم يك لطيفاً في تعامله معنا نحن الأطفال وفي إحدى المرات عندما حضر طلبت منا والدتي الذهاب إلى الفراش وأنا بالفراش سمعتُ طرقاً على الباب من دون أن أتفوه بحرفٍ حيث كُنتُ في قاع الفراش وفي مواجهة الباب عندما فُتح وكان فراشي صغيراً ومفرداً من ثلاثة أقدام متموضعاً في منتصف الغرفة فدخل إيستمان وسألني عن حالي وبقيتُ بلا حراك تحت الأغطية فسمعتُه يسحب كرسياً ويجلس عليه ثم قال لي:

- "أعلم أنك هنالك".

سحبتُ الأغطية سريعاً عن وجهي وبدأت أضحك فضحك هو بدوره ثم سحب الكرسي قريباً من فراشي وبدأ الحديث بشكل عام حول الأطفال وضرورة أن يكونوا مهذبين وعن ذهابهم إلى الفراش في الوقت المحدد وحثني على عدم إعطاء والدتي مبرراً لضربي فأستمعت إليه من دون أن أتفوه بحرفٍ وكُنتُ مستلقية على ظهري وكان هو جالساً في الجانب الأيسر قريباً من وسط الفراش فقال لابد لي أن أكون مطيعة لوالدتي وأنها لا تعني ذلك الا أنها تندفع قليلاً في بعض الأحيان.

إستمعتُ إليه ثم رأيتُ أنني حقيقة لا أرغب في الإستماع أكثر من ذلك فتمددت متجاوزة إياه للوصول إلى دميتي السوداء دولي وأمسكتُ بها بيدي اليمنى إلا أنني فقدت التوازن عندما حاولت إلتقاطها من الأرض فإنزاحت عني الأغطية كاشفة نصف مؤخرتي ولم أك مرتدية ملابسي وحينما حاولت إعادة توازني سقطتُ جزئياً على الأرض على يديّ وركبتيّ والجزء الآخر على الفراش وأقدامي فوقه ومؤخرتي في المنتصف خارجاً فزحفت إلى الخلف على يديّ وانتهى بي المطاف على ظهري في الفراش كاشفاً عضوي وبينما حاولت الوصول للغطاء أمسك إيستمان بعضوي وقال لي:

- "يا له من عضو صغير وجميل".

فسحبتُ الأغطية على جسدي ودستُ الدثار تحت ذقني ثم بدأ يتكلم وأنا محدقة فيه من دون أن أتفوه بحرفٍ ونظرتُ إليه مباشرة فحذرني:

- "من الأفضل ألا تُخبري أمكِ وإلا فإنك ستنالين الضرب والجميع يعلم أنك كاذبة ملعونة".

وخرج من الباب ثم سمعتُه ينزل السلالم وحالما أحسستُ بالأمان تسللتُ من الفراش وطويتُ دثاري إلى النصف ولففتُه حول جسدي ثلاث مرات بعدها عُدتُ إلى أعلى الفراش واستغرقتُ في النوم.

وفي صباح اليوم التالي في وقت الإفطار لم يتفوه إيستمان بحرفٍ مطلقاً ولم يك يتناول الكورن فليكس والبيض أو التوست كبقيتنا بل كان يتناول خليطاً من الأرز المقلي والبيض وأعتقد أنه حصل على الراحة بمنزلنا وفي ذات يوم حضر والدي لرؤيتنا بغتة حيث قُرع الجرس واعتقدت أن لا احد آخر قد سمعه لذلك فتحتُه وأدخلتُ أبي فسألني وهو في طريقه للداخل:

- "كيف حالك، كلييري؟".

فتبعتُه وصادف ذلك جلوس إيستمان وتناوله للإفطار بالمطبخ فنادى والدي والدتي وبدأ يلعن إيستمان وطلب منه بطريقة غير لطيفة أن يضع إفطاره أرضاً وفي ذات الوقت بدأ يلكمه ثم قام الرجلان بتبادل اللكمات حتى أدركت والدتي ماذا يحدث ومن ثم تدخلت وحاولت ضرب أبي.

هرع جورج بورقي وروز إلى خارج غرفتهما لينضما إلينا في المطبخ وطلب الجميع من الرجلين التوقف الا أنهما لم يستمعا إلى ذلك بيد أنهما في نهاية المطاف تعبا فأستسلما هذا ما أعتقد وطلبت والدتي من أبي عدم العودة فخرج ولم نره مجدداً أبداً في شارع ٦ بارنيت كما لم يزر إيستمان منزلنا لوقتٍ طويل بعد هذه الحادثة وأنتقلت آنا بكلي بفترة قصيرة بعد العراك الذي دار بين جورج وإيستمان وذلك لكونها هي من قام بدعوة إيستمان إلى المنزل وتعريفه بوالدتي وكانت على علم بما تقوم به والدتي ولم يك والدي راضٍ عنها لذلك قررت أنه من الخير لها أن تقطن في مكان آخر كما غادر جورجي بورقي وروز أيضاً إلى اسكوتلندا لفترة وأتفقا مع والدتي على أن بوسعهما استعادة غرفتهما عند عودتهما طالما أنهما يدفعان الإيجار وهما بعيدان كما أن الإيجار كان معقولاً ومعاملة والدتي لهما كانت تتسم بالرقي وفي الواقع لقد كانا أكثر من مجرد مستأجرين حيث كانا أصدقاء وكانت والدتي عادة ما تدعوهما لتناول كوب من الشاي حتى يُمكَّنها ذلك من جمع معلومات عن المستأجرين الآخرين في المنزل وأحياناً كانا يبقيان لوقتٍ أطول عندما يأتيان لدفع الإيجار حتى يتناولا شيئاً من البيرة وشراب الرم ولم يك لدى جورجي بورقي أي مشكلة حيث كان دائماً ما يعرِض على والدتي المساعدة في مهمةٍ هنا أو هناك وكانت والدتي تعتقد أن هذا أمرٌ لطيفٌ في حدٍ ذاته ومهما يكن من أمرٍ فإنها لا تدفع شئ من المال مقابل ذلك وذات جمعةٍ حضر جورجي بورقي لدفع إيجاره فأعدت

له والدتي شيئاً من الشاي وقالت أنها تحس بالإعياء فعرض عليها جورجي بورقي أن يخرج إلى الحديقة ويقطف القليل من أوراق النعناع لإعداد شاي النعناع وعرضتُ عليه أن أشاركه في قطف النعناع فخرجنا للحديقة معاً حيث كانت هنالك صفوف وصفوف من نباتات النعناع تقف بنحوٍ ثلاث أقدام طولاً فقال لي جورجي بورقي:

- "أبدأي أنتِ من تلك الجهة وأنا سأبدأ من هنا وحاولي قطف أوراق كبيرة أو من الأفضل أن تحضري الساق وعليه الأوراق".

إنطلقت إلى المهمة نازعة الأوراق من نباتات النعناع وكُنتُ أخذ الأوراق التي في المقدمة دون غيرها وكانت النباتات الطويلة بالإتجاه الخلفي لحائط الحديقة فبقيتُ بعيدةً عنه فناداني جورجي بورقي:

- "هلمي يا كلير وخذي بعضاً من النباتات الطويلة".
- "لا أريد ذلك".
- "لما لا تريدين ذلك؟".
- "لأن الزواحف المقرفة سوف تتسلق إلى أرجلي".
- "لا تكوني سخيفة، لا يوجد هناك زواحف مقرفة".
- يا جورجي بورقي لقد سحر اليرقان نفسه وتعلق بعنقي حيث جاء من العدم وأصبح في عنقي إنه السحر يا جورجي بورقي".
- "أوه بلي اليرقان! هذا صحيح كلير لقد نسيت كل ذلك يا إلهي لديك ذاكرة قوية، من الأفضل لنا الإنتباه للزواحف إلا أنه ليس علينا القلق من اليرقان".
- "لما لا؟".
- "لأني أعلم أين هو".
- "أين هو؟"
- "إنه نائم في هذه اللحظة لكن لو أحسنتِ التصرف سأريك إياه؟"
- "هل يمكننا إيقاظه يا جورجي بورقي، هل نستطيع إيقاظه الآن؟"
- "نعم، إلا أنه ليس من السهل إيقاظ اليرقان إنه مُتعبٌ جداً فإذا أردتِ إيقاظه عليك الضرب عليه بلطف وهو سيستيقظ ببطء وتذكري أن اليراق لا يحبون الضوء ولذلك هو مختبئ كما لابد له أن يبقى دافئاً جداً.
- "أجل جورجي بورقي، هل يمكنني رؤية اليرقان الآن؟".

أزاح جورجي بورقي الحزام من بنطاله ووضعه على العشب ثم قام بفتح الأزرار العلوية

- "ماذا تفعل يا جورجي بورقي؟"
- "أحضر اليرقان الشقي".

قال ذلك وهو يفك بقية الأزرار في بنطاله:

- "هلم أيها اليرقان الناعس، كلير ترغبُ في رؤيتك".
- "لماذا اليرقان في بنطالك يا جورجي بورقي؟"
- "لأنه غافٍ وهو لطيف ودافئ".

قال جورجي بورقي ذلك وهو يحرك أصابعه لفتح زر آخر.

- " لا أعتقد أن إيقاظ اليرقان فكرة سديدة يا جورجي بورقي".
- "أه، لكني أعتقد أنها فكرة سديدة فقط ضعي يدك هنا بالداخل كلير وتحسسي اليرقان الدافئ اللطيف".

فتح فجوة في بنطاله حيث ظهرت كتلة من الشعر شبيهه بظهر اليرقان المشعر الذي تسلق على عنقي فقلت له:

- "بنهاية المطاف أنا لا أحب اليراق".

وعُدتُ لجمع أوراق النعناع لوالدتي ثم ركضتُ إلى داخل المنزل فأبدى جورجي بورقي إعتذاراته وغادر سريعاً بعد ذلك.

في نوفمبر ١٩٦٤ إنتقلنا إلى ميدان صاذرلاند التي تعود ذكرياتي إليه بين الفينة والأخرى حيث إنتقلت والدتي على مراحل إذ أخذت كريستين ودينيس أولاً ورعتنا روز لليلة واحدة في شارع بارنيت وفي اليوم التالي نقلت والدتي الولدين وفي اليوم الثالث إنضم إليهم كلٌ من بولين وباتسي مما جعلني أبقى وحدي ولا أتذكر وجود روز معي في تلك الليلة حيث عادت والدتي وأخذت معطفها وحقيبتها وعندما وصلت إلى الباب قالت لي أنها مغادرة ولن تعود ثانيةً ثم أغلقت الباب وتركتني بالداخل فجلستُ وظهري إلى الباب طيلة الليل وأذكر أنها بدأت في الإظلام والشئ التالي الذي أتذكره هو دوران المفتاح في قفل الباب صباح اليوم التالي ولم يك لدي الوقت الكافي للنهوض مبتعدة وكانت والدتي وعندما كانت تحاول دفع الباب لفتحه وجدت مقاومة فأدخلت رأسها ورأتني جالسة هناك فقامت بدفع الباب بقوة لكي ينفتح مما تسبب بإحتكاكي بالجدار ثم تقدمت للأعلى متجاهلةً لي ولم تتحدث مطلقاً معي طوال اليوم وفيما بعد سالتني إن كُنتُ مستعدة فخرجنا معاً وأستقللنا البص إلى ميدان صاذرلاند.

إبتاعت والدتي هذا المنزل من ما تحصلت عليه من مال والدي وكان مسجلاً باسمها ولم يستطع والدي الحضور متى ما كان في مزاجٍ جيدٍ وفي البدء لم يك بيم مدعواً للذهاب معنا وذلك لأنه حين تعارك والداي طلب كلٌ منهما من بيم أن يكون شاهداً له إلا أنه قرر عدم التورط وذلك لمعرفته لكليهما مما جعله لا يستطيع إعطاء دليل إلى جانب أو آخر فطلبت منه والدتي المغادرة بعد ذلك وأعتقدت أنه خائن إلى حدٍ كبير حيث قام بخيانتها فأخذه جورج للسكن في واحد من منازله الأخرى إلا أنه لاحقاً إنتقل إلى ميدان صاذرلاند كما بقي جورجي بورقي وروز في شارع بارنيت وكانت والدتي في أسوأ حالاتها طالما لم يعودوا هم وبيم يقطنون معنا فكانت تصرخُ بوجهي طوال الوقت وتلكمني وتضربني من دون سبب وجيه وأصبح صدرها أكثر ضيقاً ورغم ذلك فقد كان منزل رقم ١٩ في ميدان صاذرلاند فسيحاً حيث كان به ثلاث طوابق مع حديقة جميلة وكان هنالك الكثير من الغرف للعب فيها وكانت غرفتي في الطابق الثاني بمواجهة الجزء الخلفي من المنزل وكانت أفضل غرفة هي غرفة الجلوس في الجزء الأمامي من المنزل بالطابق الأرضي بالرغم من عدم السماح لنا بدخولها إلا بدعوة وذلك لكونها حصن والدتي الحصري كما كانت مفصولة بستارة من الغرفة الخلفية بالطابق الأرضي والحمام.

عندما إنتقلنا حضر إيستمان بمحض إرادته وكان يعتقد حقيقة أنه يمتلك المنزل في حين كان من قبل مكبوح الجماح وفي أغلب الأحيان كان يتجنبنا إلا أنه الآن يتصرف كالحارس الشخصي حيث يقوم بإبلاغ والدتنا بكل سوء تصرفاتنا وكان يعتقد أن هذه هي الوسيلة المثلى لنيل رضاءها فنمت كراهيتنا له وأصبح الأمر أكثر سوءاً لكونه ليس والدنا وقد أخبرناه بذلك في كل فرصة تتاح لنا. عمِل إيستمان بالمغسلة الحديثة بفريدريك كريسنت وكان يذهبُ باكراً في الصباح ويعود متأخراً في آخر المساء وواجهت والدتي هذا الوضع بإبقائنا بعيداً عن المطبخ عندما كان إيستمان يتناول الطعام وحرصها على فعله هذا قبلنا وكانت دائماً ما تعد له إفطاراً ضخماً ودورقاً كبيراً من الشاي ليأخذه معه إلى العمل وعند عودته كان غداؤه معداً بحصص ضخمة أيضاً في طبق من البايركس باللون الأبيض والبرتقالي ومحفوظاً دافئاً في الفرن وكان وجوده في المنزل يعني أنه يجب علينا جميعاً إعداد الكثير من الطعام كتقشير البطاطس وتنظيف الأرز وعجن الفطائر.

وبعد عدة أشهر بدأ يشكو لوالدتي بشكل صريح عن كلفة معيشته معها ومعنا وقال أنه ليس أبانا ولا يرى سبباً لإهدار حر ماله بإطعام أطفال لا ينتمون إليه وكانت والدتي حريصة على إرضائه فحرصت على أن يكون هنالك طعام معد له على نحوٍ دائم حيث قامت والدتي بتقسيم المساحة في خزانة الحائط في المطبخ وذلك أنه عند فتحك للباب فإن المساحة على الجانب

الأيسر كانت مخصصة لإيستمان حيث يُحفظ فيها طعامه ولم يك مسموحاً بلمسه من قبل أيٍ منا دون إستئذانه وهذا ما لم يمنحه مطلقاً حتى ولو نفذ طعام العائلة وفي هذا الجانب الأيسر كان هنالك علب من الحليب بالقرنفل وأكياس كبيرة من السكر والشاي المحلى وأكوام من الخبز والمربى والبسكويت وعلب الفواكه متاحة على نحوٍ دائم لإيستمان وحينما ينفذ طعامنا أحياناً ونكون على علمٍ بما تحويه خزانته من بسكويت كان يقوم بإخراجه ومضغه أمامنا وكان الجانب الأيمن من الخزانة مفصولاً بخطٍ وهمي وكان يحتوي على الأرز والبازلاء ولم يك هنالك بسكويت سوى ذلك الذي في غرفة والدتي حتى تقوم بالتحكم في إمداده وفي الواقع فإن أي كماليات كالبسكويت والرقائق والحلوى محفوظة في غرفة والدتي بقفل ومفتاح وكان المفتاح مربوطاً بشريط صدريتها. كانت والدتي ما تزال قلقةً من أن ذلك الترتيب مزعجٌ لإيستمان إلا أنه لم يشك وذلك لاعتقادي بأنه أحس بأن والدتي اتخذت الخطوات المناسبة للحيلولة دون الوصول إلى طعامه فكان بإمكانه الذهاب إلى العمل بعد تناوله البيض والأرز وهو على علمٍ تام أن آل بريسكو الصغار المريعين لن يمضغوا ثمار جهده وكان ذلك الترتيب يلائم والدتي أيضاً فنحن مكلِفون في إطعامنا ولذلك لابد للطعام أن يكون مقنناً. في أوقات الوجبات كان طعام إيستمان يُقدم في طبق البايركس الذي يخصه أولاً وما يتبقى كان يتم تقسيمه على بقيتنا فكان كل من والدتي وإيستمان يتناولان الطعام معاً وكان على أطفال بريسكو الإنتظار وتناول طعامهم بعد ذلك وكانت كارمن تعلم كيف تعامله كما كان إيستمان سعيداً ما دام مستحوذاً على اهتمام والدتي جميعه ولم نك نحن سعداء كما لم يجد نفعاً تلقيه المعاملة المفضلة من والدتي حيث استمر في شكواه منا.

في حوالي السابعة من عمري وعلى أعتاب الثامنة كُنتُ أعتقد بأنه سيكون أمراً حسناً لو إبتاع لي أحدهم ثوباً جديداً بين حينٍ وآخر دون أن يكون فاخراً بل يكفي أن لا يكون قد ارتداءه من قبل وربما كان ثوباً من القطن الناعم بأزرار جميلة مع أزهار خضراء صغيرة أو زرقاء على خلفية بيضاء وقد يكون أزرقاً ليلائمني فهذا هو اللون الذي أفضله حيث كان لدي الكثير من الأزرق المستعمل وزوج من الأحذية الجديدة سيكون جميلاً أيضاً حتى وإن لُبست لبضع أسابيع لا أمانع إلا أنه لابد لهما أن يكونا متناسبين مع مقاسي وليستا ضيقتين ويروقني كعب صغير بطولٍ معتدل ولكن لا أريد أن أرتطم بالأرض فأكسر عنقي كما أنه لا بأس بحزام مربوط إلا أنه لابد أن يكون جميلاً مع شريط أسود مربوط بشكل قوس ولتكملة ذلك أتخيل دبوساً للشعر بلونٍ وردي أو فضي وسترة جميلة من الصوف لحماية ذراعي وسيكون اللون الوردي جيداً إلا الأخضر أو الأزرق كانا محبذين لدي.

كما أني أتوق أيضاً إلى تخريم أذنيّ بيد أن ذلك الأمر سيُغضب والدتي وربما كان من الأنسب لي أن أعدَّل فمي فلقد قرأت مؤخراً في بعض المجلات أن هنالك عمليات تجرى حيث يقوم الطبيب فيها بمنحك فماً وأنفاً جديدين وربما وجدتهما والدتي مقبولين لديها كما يمكنهما جعلي جميلة في الوقت ذاته وحينها يمكنني الهرب فترغب عائلة أخرى في أن تجعلني ابنتها بالتبني فالعائلات لا ترغب في أطفال دميمين وهذه حقيقة الحياة "أنتِ دميمة" هذا ما قالته لي والدتي، من قد يرغب بي؟.

في الوقت الذي بلغتُ فيه السابعة أعوام ونصف العام سارت الأمور نحو الأسوأ فلقد قررت والدتي أن محاولاتها للإساءة إلي لن تعالج تبليلي للفراش ولذا توجب عليها محاولة شيء جديد فوصلت أولى الدفعات الجديدة يوم السبت حيث كنا حينها نجلس جميعاً حول الطاولة في انتظار تقديم العشاء عندما قامت والدتي بإزاحة طبقي جانباً ثم قامت بتقديم الطعام للآخرين جميعهم وتم تجاهلي فتناولوا البطاطس المحمصة والفراخ والجذر والبطاطا الحلوة والبصل وصلصة اللحم وعندما سألت والدتي عن عشائي قالت لو أنني سأتناول الطعام فإنه سيُهضم سريعاً جداً وبالتالي سأبلل الفراش ثم أخذت عصير البرتقال خاصتي وأحتسته دفعة واحدة ووضعت الكأس الفارغ على الطاولة أمامي وقالت:

- "سوف تنعمين بليلة جافة".

لم يتفوه أحدٌ من الجالسين على الطاولة بحرفٍ وخشية الضرب اخترت عدم مواجهة والدتي فقالت:

- "نعناع، أحتاج إلى شاي النعناع".

ووضعت يدها على صدرها بالقرب من حيث تحتفظ بمفتاحها وتجشأت بصوت مرتفع وبقي كل من بالطاولة صامتاً فقالت لي:

- "أذهبي وأقطفي بعض الأوراق".

فذهبتُ إلى الحديقة وأقتلعتُ حزمة من أوراق نباتات النعناع خاصتها وعدت وكان جميع من على الطاولة قد أنهى وجبته ثم واحداً تلو الأخر وقفوا وغادروا وبقيتُ أملاً في أن تعطيني اخواتي بعضاً من طعامهن ولكنهن لم يفعلن وذلك لمراقبة والدتي لهن وعندما وقفتُ لأُغادر طلبت مني والدتي تنظيف الطاولة وغسل الأطباق فأعترضتُ وذلك لعدم تناولي شيئاً بعد كل ذلك إلا أنها لكمتني على ظهري وطلبت مني الصمت فغُسلت جميع الأطباق وجُففت ووُضعت بعيداً. بعد ذلك ذهبتُ إلى غرفتي وكان ذلك قبيل الساعة التاسعة تماماً وأعتقدتُ أنني بمنجاةٍ

منها إلا أن والدتي إقتحمت الغرفة حينها وقالت لي أنه ليس مسموحاً لي النوم بملابسي وذلك لأني في النهاية سأبللهم فأمسكت بي ونزعت ملابسي ثم صاحت:

- "يا بولين، باتسي، كارل، هلموا سريعاً، هلموا وأنظروا إلى أختكم العارية! ألقوا نظرة إليها".

نزلت بولين وباتسي ووقفتا عند الباب فالتقت أعيننا حيث كُنتُ ملتصقة بخزانة الملابس ويداي أمام عضوي بينما كانت والدتي تحاول إبعادهما ولم تبق أخواتي لوقتٍ أطول حيث إختفوا جميعاً بعد تنفيذهم أوامر والدتي واستجمعت قبضتها ولكمتني في بطني وفي أعلى فخذي.

- "متى ستتوقفين؟ متى ستتوقفين؟"

بعدها صفعتني ولكمتني في الكتف الأيمن.

- "متى؟ متى؟"

تنحيتُ عنها جانباً بأبعد ما تمكنت منه.

- "لا أعلم متى؟ قريباً، الآن، الآن، سأتوقف الآن".
- "كاذبة، أنتِ كاذبة، هل تعلمين كم مقدار الماء الذي إستخدمته في غسل أغطية فراشك؟ هل تعلمين كم مقدار الصابون الذي إبتعته لغسل ملابسك النتنة؟"
- "لا".
- "لا، ما كان لك أن تعلمي أليس كذلك، كل ما يهمك هو أن تبللي الفراش ماذا يهمك؟ هيا أخبريني، ما الذي يهمك؟ تبليل الفراش، تبليل فراشي، حسناً أنتِ لن تقومي بتبليل فراشي ثانية".

دفعتني والدتي ناحية الركن بلكمي في كتفي وحينما رفعتُ يدي لتفادي الضربة أمسكت عضوي وأعتصرته بقوة.

- "لن تبللين فراشي ثانية أبداً؟ ماذا قلت؟ أخبريني؟"

وهي ما تزال ممسكة بعضوي جذبتي بإتجاهها فذهبتُ إليها بسهولة وحاولتُ أن لا أقوم بأي حركة مفاجئة لأن ذلك يؤلم بشدة وسرتُ على أخمص قدميَّ نحوها بسبب إمساكها بعضوي بإتجاه الأعلى وكان من السهل السير على أخمص قدميِّ من إتخاذ وضعية القدم

المنبسطة فجذبتني نحوها ومن ثم إلى الفراش الذي كان في وسط الغرفة لكنها دفعتني للخلف وذلك شكَّل مستطيلاً بطول الجدار الخلفي حوالي ثلاثة أقدام من الجدار وفجأة غرزت أظافرها داخل عضوي فأمسكتُ يديها بيديّ لأتحكم بالضغط ثم أفلتتني فجأة وأمسكت بثديي الأيمن كُنتُ آملة ألا تفعل ذلك وكُنتُ في آلم هائل وعندما قمت بتحريك يديَّ للأعلى لحماية حلمتيَّ أمسكت بالأخرى ومن ثم أمسكت كلتى حلمتيَّ وعصرتهما حتى انسحقا بين أصابعها وحينها كُنتُ أقف على أخمص قدميَّ عندما كانت والدتي تخز وتلوي حلمتيَّ وواصلت بسؤالي:

- "متى ستتوقفين عن التبول في فراشي؟ متى؟ متى؟".

لم أجبها حيث منعني الآلم من التحدث فزادت والدتي الضغط.

- "متى؟ متى؟ أخبريني كلير".

أفلتتني والتفتت إلى فراشي وأمالته لتلقيه على جانبه وبذلك فصلت المرتبة عن الهيكل وبالتالي الفراش من المنبه وعانت في إخراج المرتبة عبر الباب، بلاهة هذا ما ظننته، غباء وبلاهة لِما قد أهتم بمرتبتها؟ كرهتها. أخيراً تمكنت من أخذ مرتبتي معها عندما غادرت غرفتي.

وأخيراً نعمتُ بالسلام، وجدت بعض الملابس فقمتُ بتغطية نفسي وبدأتُ في صنع فراش على الأرض مستخدمة كومة من الملابس المستعملة القديمة التي كانت في خزانة ملابسي لبعض الوقت وحالما أُعد فراشي دخلتُه وأطفأت الإضاءة وأدخلت أختي بولين رأسها من الباب وهمست:

- "هل أنتِ بخير يا كلير؟".
- "نعم، أنا بخير".
- "لا يجدر بِك الرد، تعلمين ذلك".

كان رأسي يؤلمني وحلمتايّ تُحرقني والألم بين ساقيَّ كان حاداً إلا أنني قد نجوت. عادت بولين إلى غرفتها فسحبتُ الدثار على رأسي وغفوت، مجدداً ذات العيون الأربع تجمع المعلومات.

بدأ اليوم التالي بشكلٍ سيئ فبالرغم من عدم شربي الماء قبل الذهاب إلى الفراش إلا أنني بللتُه مرة أخرى أثناء الليل وتشبع جزء من السجادة بالبلل وأصبح يُصدر صوتاً كالسحق حين سرت عليها وعادت والدتي إلى غرفتي عند الشروق في الصباح الباكر وقالت:

- "اشتم رائحة البلل".

أتت ورفعت الدثار وقامت بشمه ثم التقطت بعضاً من الملابس التي إستخدمتها في صنع الفراش وقامت بشمهم أيضاً:

- "تفوح منكِ رائحة النتانة".

قالت ذلك وأمسكت بحافة الدثار ثم سحبته فتدحرجتُ من كومة الملابس وتبع الدثار والدتي أثناء مغادرتها للغرفة، لقد نفذ مني الدثار والملابس القديمة إلا أن الصيف كان يقترب وكانت من عادة والدي أن يبتاع لنا ملابس جديدة في هذا الوقت.

كان حينها عندما بدأ إيستمان بالتجسس علينا حيث كُنتُ في غرفتي في وقت ما أزيح في ملاءتي التي بللتها الليلة الماضية عندما سمعتُ السلالم تُصدر صريراً ثم ظهر إيستمان عند الباب:

- "كارمن، هلمي سريعاً".

فظهرت هي في لمح البصر عند الباب ودخلت إلى غرفتي:

- "أنظري كارمن، أنظري كيف تبولت في الفراش؟".

أمسكت بي والدتي من صدري وجذبتني بإتجاهها وسألتني لماذا بللت الفراش فقلت لها لا أعلم فلكمتني في رأسي وبعدها أفلتتني وواصلتُ في تبديل ملاءتي وإيستمان يراقبني من صدع في الباب فقلت له:

- "إلى ماذا تنظر؟ لماذا لا تذهب وتتجسس في مكان آخر؟".
- "ماذا تقولين؟ ماذا تقولين؟ أيتها السافلة السوداء، ماذا تقولين؟" ثم دخل إلى الغرفة ولكمني من الخلف ودفعني عنوة تجاه الفراش ثم غادر.

قلت له:

- "غبي".

وأستمر في التسلل إلى أرجاء المنزل لجمع المعلومات لوالدتي شاكياً كل الوقت من مقدار ما نتناوله من طعام ومتخطياً حدوده برواية الأكاذيب لإيقاعنا في المشاكل وبحلول عيد الميلاد بدأ في التحدث مع نفسه ومع كل من على مدى السمع عن النفقات وحينما كنا نمر به كان يقول:

- "ايستمان، الآن أنت أحمق ملعون، كيف ستنفق نقودك على أطفال ليسوا لك؟ لستُ أنا! أنظر إلى كم الأفواه التي يتوجب علي إطعامها، ستة أفواه ولا يخصني أحدها، من الأفضل لكم الذهاب للعثور على أبيكم وإخباره ليس غبياً من يقطن في رقم ١٩ وفي أحايين أخرى كان يقول:
- "ما من ديكٍ رومي سيمر بأفواهكم أيها السفلة".

وكان جلياً أنه من المتوقع منا أن نجد والدنا لإخباره أنه إن لم يبتع لنا الطعام لعيد الميلاد فلن يكون هنالك ما نتناوله.

الفصل الرابع

بهجة عيد الميلاد

١٩٦٥

أتى عيد الميلاد أخيراً فأيقظتنا والدتي باكراً جداً وذلك لرغبتها في أن يكون المنزل نظيفاً قبل إستيقاظها من النوم ثم عادت إلى الفراش في حين بدأتُ التنظيف فاليوم يومٌ سعيدٌ لأنه عيد الميلاد حيث الكثير من الطعام والهدايا فأنطلقت بدءاً بالسلالم ثم المهبط والصالة وغرفة نومي وتالياً إنتقلت إلى غرفة الجلوس وقمت بتنظيفها جيداً ساحبة الأريكة بعيداً عن الحائط والتنظيف خلفها وبعدها تحت الطاولة الزجاجية وحول خزنة والدتي للأواني الصينية جميعها أُنجزت وبعدها المطبخ حيث كانت تعمُ الفوضى إلا أنها لن تأخذ وقتاً طويلاً لتنظيفها وقامت أخواتي بتنظيف غرفهن وبعدها الحمام وحالما تم الإنتهاء من كل ذلك إنضمت إلى بولين وباتسي في المطبخ حيث قمنا بغسل كل الأواني المتسخة وتجفيفها ثم وضعها جانباً كما تم مسح الأرضية وبعدها قمنا بوضع جميع الطعام الذي سيُطهى على الطاولة مع كل التوابل التي قد نحتاج إليها ثم حان موعد الإفطار وهو الكورن فليكس ونصف علبة حليب وقليل من السكر وشريحة من التوست.

لاحظتُ أن جميع البسكويت الذي وضعناه جانباً عندما قام والدي بإحضار الطعام قد اختفى إلا أن الديك الرومي مازال موجوداً وكذلك البطاطس والجزر والأرز إلا أن بسكويتنا والكعك المحلى ومقرمشات الكريمة قد تبخرت ولم يك ذلك مهماً كثيراً لأن ذلك كان عيد الميلاد وسيتناول الجميع الطعام. أولاً قمنا بمشاهدة – لاسي– على التلفاز وكانت ليزي تايلور رائعة جداً وبعدها شاهدنا– ويسل داون ذا ويند– وتمنيتُ لو كان بإمكاني إيجاد المسيح في حظيرتي فأعتقدت بأني ربما قد أساله متى سأكون سعيدة.

نادت والدتي أخيراً على بولين وباتسي وعليّ لكي ننزل إلى الطابق الأرضي حيث حان وقت البدء في إعداد عشاء عيد الميلاد وكان الديك الرومي الخاص بإيستمان موضوعاً على الطاولة وكان ضيئلاً وأصلع إلى حدٍ بعيد مع طفح جلدي من عدوى جلدية فقمنا بوضع ديكنا الرومي الضخم فوق ديك إيستمان وبدا وكأن ديكنا أنجب ديكه الصغير وهممنا بنتف الديك وأثناء فعل ذلك إلتقطتُ ملعقة خشبية صغيرة وقلت:

– "لمن هذا الديك الرومي الشقي؟".

وقمتُ بضرب ديك إيستمان على صدره:

- "أنت شقي، أيها الديك الرومي الشقي، أنت لوحدك أليس كذلك؟ هذا جيدٌ لعقابك ألا وهو أننا سنقوم بتناولك الآن".

كان لدينا كمٌ ضخمٌ من الطعام فقمتُ بتقشير البطاطس في حين أعدت باتسي الأرز حيث إلتقطت كل الحبوب الملونة وغسلت النشا منه ثم وضعته جانباً كما تم تقشير كرنب بروكسل من الطبقة الخارجية وتقطيعه بسكين حادة عند نهاية الساق وجُهِزت كل الفطائر المحشوة باللحم المفروم للتسخين ومن ثم الأكل. ظل إيستمان بعيداً عن طريقنا بعد أن تفوق عليه والدنا بأطايب عيد الميلاد كما ظل ديك إيستمان الرومي غير منتوفاً فلقد قمنا بتجاهله فحسب وإذا أراد إيستمان ديكاً رومياً فعليه هو بطهيه وبمجرد ادخال طائرنا الكبير إلى الفرن ذهبتُ إلى الأعلى لمعرفة متى يمكننا فتح هدايانا.

حضر والدي في عيد الميلاد ووقف عند الباب الأمامي ومعه الهدايا وحظي الجميع بالهدايا ماعدا دينيس حيث لم تك دينيس موضع اهتمام جورج فطرق على الباب ووضع كيس الهدايا على السلم وأنتظر فألتقط إيستمان عصاةً كانت جزءاً من يد مكنسة وفتح الباب وهو يحملها في يده وكانت والدتي تقف عند كتفه وكُنتُ أنا جالسة في قمة الدرجات الأولى من السلالم ومعي أخواتي يُحدّقن من فوق كتفي.

قال إيستمان بعدائية:

- "ماذا تريد؟ لا يقطن أحدٌ هنا ينتمي إليك؟"

فقال جورج:

- "لماذا لا تسدي لنفسك خدمة أذهب وأجلس هنالك؟"

فردد إيستمان:

- "لا يقطن أحدٌ هنا ينتمي إليك لذا إبتعد الآن، إبتعد عن الباب".

فقال جورج:

- "أنت تثرثر كثيراً".

وقاطعته والدتي:

- "يا إيستمان، لا تُضيع وقتك معه، هلم يا إيستمان".

قال إيستمان:

- "إبتعد عن بابي، إبتعد، إبتعد".

ورفع إيستمان عصاته فأمسك والدي بها وخطى فوق عتبة الباب فحاولت والدتي تخليص إيستمان فتصارع الثلاثة في الصالة وفي تعاقب سريع للأحداث لكم والدي إيستمان على وجهه مرتين فركلت والدتي والدي وحاولتُ القفز فوق ظهره إلا أن والدي مال للأمام فتدحرجت والدتي من فوق رأسه وهبطت بشكل جزئي على إيستمان والجزء الآخر على الأرضية وتخطى والدي كليهما وعاد إلى الباب الأمامي والتفت مجدداً ليواجهنا ثم نادى علينا:

- "هلموا وخذوا هداياكم".

فإندفعنا نزولاً السلالم إلا أننا توقفنا حين صاحت بنا والدتنا:

- "لا تبرحوا أماكنكم".

وعندما كانت تلملم نفسها كان إيستمان ما يزال على أرضية الصالة يبحث عن عصاته التي حلقت بعيداً وصاحت بنا مجدداً:

- "لا تبرحوا أماكنكم".

ونادى علينا والدي مجدداً:

- ""هلموا وخذوا هداياكم".

فصاح إيستمان في والدي:

- "إنتظر، أنا قادمٌ إليك، إنتظر، أين عصاتي؟ كانت معي هنا، من أخذ عصاتي، حسناً جيداً، إنتظرني مكانك، سوف آتيك حالاً".

وأختفى خلف المنزل للبحث عن سلاحٍ آخر ثم ظهرت والدتي مجدداً من غرفة الجلوس ومعها خابور كبير لابد وأن طوله كان يبلغ التسع بوصات كما عاد إيستمان ومعه عود من الخشب بطول حوالي ثلاثة أقدام وكان والدي ما يزال عند الباب قائلاً:

- "هلموا لأخذ هداياكم".

فصاحت والدتي رافعةً الخابور عالياً فوق رأسها:

- "أخبرتكم أن لا تبرحوا أماكنكم".

ولقد بدا الخابور كساق الزهرة من آثر الصدأ إلا أنها كانت تحمله كالرمح وشقت ومعها إيستمان طريقهما ببطء نحو والدي.

أدخل جورج يده في الكيس الذي بجانبه وأخرج هدية كبيرة ملفوفة وألقاها داخل الصالة وقال:

- "يا بولين هذه لك يا عزيزتي، إنها لك".

ثم ألقى عند ساقيّ والدتي هدية كبيرة مستطيلة وبدأ والدي بالغناء وهو يدخل يده مرة أخرى داخل الكيس:

- "يا باتسي، هل إعتقدتِ أني نسيتُك، هل فعلتِ؟ لا، هل لي أن أنسى فتاتي الصغيرة؟".

وذهبت هدية أخرى بإتجاه صدر إيستمان في حين كان هو ووالدتي يتقهقرون إلى خلف المنزل وإغتناماً للفرص إندفعنا نزولاً السلالم وأمسكنا بهدايانا ثم ركضنا عائدين للأعلى مرة أخرى وكان والدي يبحث بكيسه عندما إقترب منه إيستمان بلوحه الخشبي فقال أبي:

- "لا تكن غبياً، اذهب وتناول مشروب عيد الميلاد مع المرأة العجوز".

رفع إيستمان لوح الخشب ليضرب أبي إلا أن أبي دفع الباب بإتجاهه مجبراً إياه على التراجع إلى الصالة ولم يك من أثرٍ لأخويّ كارل ومارتن حيث كانا على الأرجح مختبئين فألقى أبي بالهدايا الأخيرة داخل الصالة:

- "عيد ميلاد مجيد، يا أطفال".

قال ذلك أثناء عودته إلى سيارته ثم أضاف قائلاً:

- "يا إيستمان، إنك كالديك الرومي ويا كراميل، أراكِ قريباً".

ثم ركِب سيارته وركضنا جميعاً ورأيناه عبر النافذة وشاهدناه وهو ينطلق مبتعداً.

ظلَّ إيستمان ووالدتي في الطابق الأرضي أما نحن فقد قمنا بفتح هدايانا حيث إبتاع لنا أبي الأحذية والملابس الجديدة وبعض الدمى الخشبية وقوالب طوب للبناء ومجموعة قطارات ومقال وحلوى لكل واحدٍ منا. وتجنب الجميع إيستمان ووالدتي لبقية الصباح مستمتعين

بهداياهم في سعادة وحتى لا نُمني أنفسنا بالتفوق عليها دفعت والدتي برأسها من خلف الباب ونظرت إلينا فتجمدنا جميعاً وتوقفنا عن ما كنا نفعل وحدقنا تجاهها فقالت:

- "عند فراغكم من ما تفعلون، هلموا للطابق الأرضي".

ثم أغلقت الباب وسمعنا خطاها وهي عائدة للطابق الأرضي وعند الظهيرة ذهبتُ للطابق الأرضي مع بولين وباتسي وكارل ولم أتمكن طوال حياتي من تذكر فتح هدايا عيد الميلاد معاً كما يفعلُ الآخرين فلم يك هذا أمرٌ يحدث في عائلتنا وذلك لأن والدتي كانت تجلس على الكرسي مُبعدة الساقين وعربة التسوق ذات العجلات وسطهما وبها كيس داخل حقيبة فولاذية وتنادي على بولين قائلة لها:

- "هلمي يا پي" ثم تسلمها هدية.
- "شكراً لك أمي" ثم تقول:
- "هلمي يا باتسي تفضلي". وتقول لها باتسي بعد أن تأخذ هديتها:
- "شكراً لك أمي".

ثم تقول:

- "هلمي يا كلير" فأقف وأذهب إليها.
- "تفضلي خذيها" فآخذ هديتي وأعود إلى مكاني فتمد يدها بهدية ملفوفة:
- "أوه كلير هذه واحدة أخرى" وأقف مجدداً وآخذ الهدية.
- "شكراً لك أمي" أقول لها ذلك وأعود إلى مقعدي.

وبمجرد أن يأخذ الجميع هداياهم نجلس بالجوار وهدايانا على حجورنا وكانت بولين سعيدة جداً بهديتها إذ حصلت على ماكينة حياكة جديدة وباتسي أيضاً حصلت على ماكينة مماثلة وفتحتُ هديّتي حيث كانت الأولى ناعمة ومتعرجة فنزعتُ عنها الورق وقُلتُ:

- "أوه شكراً لك أمي".

فلقد كانت دميتي السوداء وكانت أخر مرة شاهدت فيها دولي عندما كُنتُ ألعب بها في منزلنا بشارع بارنيت.

- "على ماذا حصلتِ؟، دعينا نرى".

أرادت بولين معرفة ذلك فقلتُ لها:

- "إنها دولي".

قالت بولين:

- "ألم تحصلي عليها السنة الماضية؟"

فقلتُ:

- "والسنة التي قبلها".

وفتحتُ الهدية الأخرى فكانت الرأس الدوار خاصتي وأعتقد أنني كُنتُ في الخامسة من عمري عندما حصلتُ عليه كهدية أول مرة وفتح الجميع هداياهم قائلين "شكراً يا أمي". ولم أك متضايقة جداً بشأن الرأس الدوار كما أنني على الأقل استعدتُ دولي إلا أن دولي بثوبها الجميل ذو القماش القطني الأصفر والدانتيل المموج حول العنق وملابسها الداخلية البيضاء بعد كل هذه السنين أصبحت متسخة قليلاً إلا أن غسلة جيدة ستفي بالغرض.

بعد فتح الهدايا بقينا جميعاً لمشاهدة التلفاز وفي وقت العشاء كان إيستمان صامتاً وذلك لأن الطعام الذي كنا نتناوله قد قام أبي بإبتياعه ودفع ثمنه وبالكاد أمكنه الشكوى لكنه في الواقع قد تناول كمية كبيرة منه فبعد إثارة كل تلك الجلبة ولوقت طويل فهو الآن يحشو نفسه بطعام أبي وكان لدي كذلك الكثير لأتناوله وأحتسيه ومن ثم أذهب إلى الفراش مع دولي والرأس الدوار والهدايا التي أعطاها لي أبي وكان منبه البلل موصولاً فدعوتُ الرب أن يوقف تبليلي للفراش وتبركتُ بعلامة الصليب ثم ذهبتُ إلى النوم.

وفي يوم الملاكمة صحوتُ على صوت المنبه وعندما فتحتُ عينيّ رأيتُ والدتي تنزع حذاءها وبيدها الأخرى تجذُب ثوب نومي فأنسل الثوب من فوق رأسي وضربتني على مؤخرتي العارية بحذائها ولكم آلمتني ثم قالت:

- "أيتها الحقيرة القذرة، حان الوقت لتتوقفي عن تبليل الفراش".

وضربتني مرتين أخرتين على يدي اليمنى وأعلاها وتوقفت فجأة ثم جذبت الغطاء المبلل من الفراش مما أسكت ذلك المنبه وأزالت دثاري وأخذته بعيداً مع غطائي وثوب النوم فوجدتُ ثوب نوم آخر في الخزانة قُمتُ بإرتدائه كما قُمتُ بصنع فراشي من بعض الملابس القديمة ثم عُدتُ إلى الفراش وانتظرتُ وتمكنتُ من سماع والدتي وهي تفتح وتغلق الأدراج في المطبخ وكان أفضل شئ أفعله هو البقاء مكاني وكان هذا ما فعلتُ.

وفي وقتٍ لاحقٍ في ذات اليوم إستيقظتُ وذهبتُ إلى داخل غرفة أخواتي إذ لم يعودوا يزعجون أنفسهم ويأتون لرؤيتي في أثناء الضرب لأن ذلك يزيد وضعي سوءاً وكان يوم الملاكمة جيداً حيث تناولنا الإفطار المكون من الحساء والتوست ونظفنا المنزل وبعد ذلك شاهدنا التلفاز وقضت والدتي وإيستمان أغلب وقتهما في غرفة الجلوس ولمرتين تمكنتُ من رؤية إيستمان وهو يسترق النظر إلينا من صدع الباب عندما كنا نلعب بالهدايا التي أعطانا لها والدي فلقد كان يتجسسُ علينا فأطلقنا عليه لقب "المتسلق" وبعد ذلك تناولنا المزيد من الديك الرومي والبطاطس والجزر وحشونا أنفسنا بالطعام فلقد إبتاع لنا والدي الكثير من الفاكهة والمكسرات وكان ذلك جيداً.

وفي وقت النوم حضرت والدتي إلى غرفتي حاملة كيساً أسوداً من البلاستيك وأضطربتُ عند إقترابها مني فقالت:

- "هل أنتِ مستعدة للنوم؟".

وكان الكيس مربوطاً بعقدتين فقامت بحلهما وأخرجت الكيس الخارجي ثم قامت ثانيةً بحل مجموعة من العُقد ومجملاً أزاحت ثلاثة أكياس وبداخل الكيس الأخير كانت ملاءتي ودثاري وثوب النوم جميعها مبللة وتفوح منها رائحة البلل.

- "هل أنتِ مستعدة للنوم؟".

فقلتُ:

- "نعم".

دفعت والدتي بعيداً الفراش المُعد من الملابس والذي إستخدمتُه باكراً ذلك الصباح وألتقطت الملاءة وفتحتها لتستعرض رقعة بلل صفراء كبيرة ووضعتها على الفراش فأنطلق المنبه تلقائياً فقامت والدتي بإخراج المكبس من القابس وبحذرٍ صنعت لي فراشاً وحشرت الملاءة تحت المفرش ثم وضعت وسادتي أعلى منها ومن ثم ألقت الدثار المبلل من فوقها وقالت:

- "إرتدي ثوب نومك".

وسلمتني ثوب نوم الليلة السابقة والذي كان مبللاً ورائحته سيئة جداً فنظرتُ إليه ومن ثم إليها فأعادت كلامها وضربتني في مؤخرتي:

- "إرتديه".

خلعتُ ملابسي وأرتديتُ ثوب النوم وحاولتُ جاهدة ألا أدع أي من البقع المبللة أن تلمس جلدي إلا أن ذلك كان محالاً وبعد إرتداء ثوب النوم جذبت والدتي الدثار بعيداً وقالت:

- "أصعدي".

وبإذعان صعدتُ إلى الفراش ثم جذبت والدتي الدثار من فوق وحتى تحت ذقني تماماً.

- "ها أنتِ ذي، تُصبحين على خير يا كلير ولو أنك غادرتي الفراش وأبدلتي ملابسك فستعيشين لتندمي على ذلك".

وبمرور وقتٍ كافٍ غادرتُ الفراش وجذبتُ الملاءة للأعلى بإتجاه مقدمة الفراش ووجدتُ بعضاً من المكان الجاف لأنام عليه ثم قُمتُ بقلب الدثار حتى يكون أغلب البلل في الأسفل وكان ثوب نومي مبللاً تحت صدري ولذلك قُمتُ بلفه إلى الأعلى وربطه في عقدة ثم إستلقيتُ على جانبي وذلك للبقاء في الجانب الجاف من الملاءة وحضرت والدتي مرتين فتظاهرتُ بالنوم في كلتا المرتين وبعد زيارتها الأخيرة إستيقظتُ وذهبتُ إلى الحمام وعندما وصلتُ إلى الدرجة الأولى من السلم بدأ إيستمان بالصياح:

- "يا كارمن، كارمن، هلمي المتبولة خارج غرفتها".

جاءت والدتي راكضة والتقينا في السلالم فقالت لي:

- "أذهبي إلى غرفتك".

فذهبتُ إلى غرفتي وبقيتُ هناك وكان الباب مؤارباً وسمعتُ صرير السلالم فرصدتُه من على فراشي وهو يختلسُ النظر إلى غرفتي مجدداً ولذلك نهضتُ ووقفتُ على فراشي وقُمتُ عمداً بالتبول على جميع الدثار ونظر إلي فحدقتُ إليه مباشرة إلا أنه لم يناد على والدتي وأنتظرني حتى أكملتُ ثم تسلل نزولاً السلالم كما الجاسوس الذي كانه.